مذكرات

هيلين كيلر

كَيْفَ بِمَقْدُوري مُسَاعَدَةُ العَالَم؟

Telegram:@mbooks90

ترجمة
أميرة الوصيف

نينوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

How I would help the world

Helen Keller

Swedenborg foundation 1935

هيلين كيلر

(٢٧ حزيران ١٨٨٠ - ١ حزيران ١٩٦٨)

- أديبة ومحاضرة وناشطة أمريكية، عانت هيلين كيلر من مرض السحايا في سن تسعة عشر شهراً، ما أدى إلى فقدانها السمع والبصر تماماً.

- عندما بلغت سن السابعة قرر والداها إيجاد مُعلِّم خاص لها. لذلك أرسل مدير مدرسة بيركنزا للمتفوقين الشابة المتخصصة آن سوليفان إليها والتي استطاعت بدورها التقرّب من الفتاة وكان لها الدور الكبير في مجال تعليمها.

- بعد أن أنهت كيلر التعليم الثانوي التحقت بكلية رادكليف حيث حصلت على شهادة البكالوريوس. وقد عاشت كيلر بعد ذلك مع معلمتها سوليفان بشكل دائم حتى وفاتها. وخلال سنوات التعليم أصبحت كيلر من داعمي الاشتراكية، وفي عام ١٩٠٥ انضمت كيلر إلى الحزب الاشتراكي الأمريكي. وقد أصبحت كيلر بعد ذلك ناشطة بارزة في الأعمال الخيرية. وكانت شخصية بارزة ونشطة في الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. وفي عام ١٩٣٤ مُنحت كيلر جائزة ليندون جونسون وهو (وسام الحرية الرئاسي).

Telegram:@mbooks90

- نشرت هيلين كيلر ثمانية عشر كتاباً، من أشهر مؤلفاتها: (العالم الذي أعيش فيه - أغنية الجدار الحجري - الخروج من الظلام - الحب والسلام - وهيلن كيلر في اسكتلندا). وتُرجمت كتبها إلى خمسين لغة. ألّفت هيلين كتاب «أضواء في ظلامي» وكتاب «قصة حياتي» في ١٩٠٢، وكانت وفاتها عام ١٩٦٨م عن ثمانية وثمانين عاماً.

- من عباراتها الشهيرة: «عندما يُغلق باب السعادة، يُفتح آخر، ولكن في كثير من الأحيان ننظر طويلاً إلى الأبواب المغلقة بحيث لا نرى الأبواب التي فُتحت لنا». ومما

قالته أيضاً: الحياة إما مغامرة جريئة وإما لا شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الأوّل

هيلين كيلر العرّافة التي تنبأت بحضارة جديدة!

«إنّ الشيء الوحيد الأسوأ من كونك أعمى هو أن تمتلك نعمة البصر، لكنّك لا تتمتع بنعمة البصيرة!»

كانت تلك هي كلمات البطلة الشعبيّة ذات الشّهرة العالميّة الواسعة، التي استطاعت أن تقهرَ إصابتها بالعمى والصّمم، وقد عُرِفَت بسعيها الدائم لأجل حقوق الإنسان؛ تلك المؤلّفة الفلهمة التي قدّمت الأمل والعزيمة والمواساة إلى كلّ هؤلاء الذين كانوا يتوقون إلى تجاوز عقباتهم وتحدّياتهم، تلك شأنها، فبعد أن أصيبت هيلين كيلر بالعمى والصّمم في وقتٍ مُبكِر للغاية من عمرها، تمكّنت، على الرّغم من كلّ الصعاب أن تصبح أنموذجاً مُضيئاً لانتصار الروح التي سحقت تلك العقبات، فقد استطاع أملها أن يتغلّب على يأسها، وقد استطاع ذلك النور الداخلي لقلبها أن يتفوّق على كلّ هذا الظلام الدامس، فحينما نتأمّل حياة تلك الشخصيّة الفلهمة، فربّما نتساءل في عَجَب ودَهَش كيف يمكن لهيلين كيلر أن تتمكّن حقاً من قهر تلك العقبات والتحديات، وأن تصبح امرأةً ذات قوة فاعلة مؤثرة، هكذا إلى الأبد؟! يا تُرى، ما مصدر قوّتها الداخليّة وسلامها العميق؟ يا تُرى، ما مصدر تفاؤلها الذي لا ينضب، وتطلّعاتها النبيلة؟ لقد شكّلت تلك المرأة مصدر إلهام للملايين من الأشخاص حول العالم، واستمرّ ذلك حتّى يومنا الحالي، لكن يبقى السؤال الأهمّ، هنا، يا تُرى، مَن ألهَم هيلين؟ وللإجابة عن ذلك السؤال، على وجه التحديد، سيكون علينا أخذ جولة ننظر خلالها بعناية شديدة إلى حياة تلك الأسطورة المعروفة بهيلين كيلر، عرّافة حضارتنا الجديدة!

وُلِدَت هيلين آدم كيلر في مدينة توسكومبيا في ولاية ألاباما الأمريكيّة، بتاريخ ٢٧ يونيه لعام ١٨٨٠م. كانت طفلة سعيدة وجذّابة ومَرِحَة، وقد قضت تلك الفتاة الصغيرة المحبوبة قرابة التسعة عشر شهراً من حياتها تنمو وتكبر كأيّ طفلة طبيعيّة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان في مقدورها الاستمتاع بجمال العالم، والاستماع مُتلَذِّذة إلى أنغام وإيقاعات الطبيعة. وفي أوائل شهر فبراير من عام ١٨٨٢، أصيبت هيلين كيلر بأحد الأمراض التي كان من الصعب تشخيصها وتَعَرُّفها في ذلك الوقت، لكنَّ معظم الناس قد أكّدوا أنّ مرضها ذاك كان الحُمى القرمزيّة، التي تركتها كفيفة وصمّاء. ولَمّا باتت هيلين في الثانية عشرة من عمرها، عمدت إلى كتابة الكلمات التالية حول مرضها وتأثيره الهائل فيها:

«في إحدى الليالي الباردة المُوحِشة من شهر فبراير، عندما كان عمري تسعة عشر شهراً، أُصِبت بمرض خطير، ولازالت لديّ حتّى الآن بعض الذكريات المُشوَّشة بخصوص ذلك المرض، إذ لازلت أتذكّر كيف كانت أمي تجلس إلى جانب فراشي الصغير وتحاول بكلّ قوّتها تهدئة صرخاتي المحمومة وأنيني، وكانت تتضرّع قائلة:

يا أبانا الذي في السموات، أنقذ حياة طفلتي!

لكنّ الحُمّى قد ارتفعت وتصاعدت وتوهّجت داخل مُقلَة عيني، حتّى إنّ طبيبي كان يظنّ، لأيّام عدّة متوالية، أنّي سأموت. لكن، في صباح أحد الأيام التالية، غادرتني الحُمّى بالغرابة عينها التي قد باغتتني بها في المجيء، وحينها، سقطت في نومٍ عميق للغاية. وحينها، أدرك والداي أنّني سأعيش، ولقد غمرت السعادة قلبيهما بشدّة، لكنّهما لم يكتشفا من فور تعافيَ من ذلك المرض أنّ تلك الحُمّى القاسية كانت قد أخذت معها سمعي وبصري، وسرعان ما توقّف صوتي الطفوليّ ذاك، لأنّني لم أكن لأسمع أيّ صوت في الخارج».

لبقيّة حياتها كانت هيلين لتظلّ كفيفة صمّاء غير قادرة على التحدّث بوضوح، وعلى الرّغم من ذلك فهي لم تدع تلك العوائق الثلاثيّة لتقوم بتكبيلها وجعلها إحدى أبرز رائدات الحركات الإصلاحيّة المُلهِمة في العالم بأسره، وكذلك أيضاً لم تسمح هيلين لتلك التحديات أن تكون بمنزلة الحجر الذي يقف حائلاً بينها وبين ذلك الابتهاج الروحيّ المُفعَم بالحيويّة، الذي كانت تتمتّع به. وفي كتابتها التالية، كانت هيلين كيلر تقول:

«لكنّني لم أفقد كلّ شيء بَعد، ففي أيّ حال، إنّ نعمة البصر والسمع هما نعمتان

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

فقط بين نِعم الإله الهائلة التي أنعم بها عليّ، ولازلت أملك أغلى تلك النعم وأكثرها روعة ودهشة، فلازلت أملك عقلاً صافياً ونشطاً!»

لقد اختتمت هيلين بملاحظة مؤثرة بشدّة، وقالت:

«إنّ حياتي تملؤها السعادة والبهجة، فكلُّ يوم يجلب لي المزيد من المرح والفتنة، وكلُّ يوم يُرسِل لي جرعة حُبّ من جانب عدد من الأصدقاء غير المُقرّبين، الذين لا تربطني بهم معرفة شخصيّة، حتّى إنّي أصبح مُبتهجة من آنٍ إلى آخر بقلبٍ عامرٍ بالفرح، وأنا أتغنّى قائلةً:

«الحبُّ هو كلُّ شيء، والله هو الحبُّ!»»

حقاً، لقد أصبحت هيلين كيلر واحدة من أبرز وأهمّ الرموز الإنسانيّة، وقد استطاعت أن تُحقق انتصاراً غير مسبوق للروح على كلّ ذلك الكمّ الهائل من العوائق والعقبات.

التغلُّب على العقبات والتحديات

تلك الحياة التي عاشتها هيلين كيلر وسط ذلك الظلام الدّامِس، كان فيها الصمت شيئاً ثقيلاً على النفس، وغير مُشجّع في أيّ حال من الأحوال، وقد اعترفت هيلين كيلر أيضاً بأنّها كانت تضيق ذرعاً بهذا الأمر في بعض الأوقات، فأحياناً كانت تشعر بالسأم والضيق من محاولتها الدؤوب في تلمُّس طريقها عبر الظلام القاتِم الذي لا يرحم، فقد كتبت يوماً تقول:

«لا أحد يعرف، وليس في استطاعةِ أحد أن يعرف ذلك الجانب المرير من الحرمان الذي خلّفته تلك العقبات والعراقيل كما عرفته أنا، فأنا لا أحاول خداعكم أو منحكم صورة مُزيّفة عن وضعي، فليس صحيحاً ما يُقال حول أنّني لم أشعر يوماً بالحزن أو السخط أو التمرُّد إزاء حالتي في يومٍ من الأيام».

وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ هيلين ترفض دائماً أن تتذمّر بشأن موقفها، ولا تسمح لنفسها أبداً أن يتمّ سجن روحها عن طريق تلك التقلّبات المزاجيّة السوداويّة، وقد كتبت يوماً تقول بخصوص هذا الشأن:

«لقد تأمّلت قلب ذلك الظلام مراراً وتكراراً، وقد رفضت الرضوخ والاستسلام إلى تأثيره المُعيق، فعلى المستوى الروحيّ، أنا أحد هؤلاء الذين يغمرهم نور الصباح».

وقد كتبت في مُناسبة أخرى تقول:

«لا يتوجّب أبداً على المرء الزحف ما دام لديه الدافع ليُحلّق عالياً!»

لقد كانت هيلين تعلم على نحوٍ حدسيّ أنّ هناك صورة أكبر من تلك التي حُرِمَت من رؤيتها، وكانت تؤمن، في قرارة نفسها، بأنّ إعاقاتها تلك هي جزء من خطّة الإله الأعظم لتحقيق غرضٍ ما. وبناءً على ذلك الاعتقاد العميق، رفضت كيلر أن تنخرط في ذلك الشعور من الأسى على حالها والشَّفَقة الذاتيّة، فذات يوم كتبت تقول:

«منذ فترة طويلة كنت قد قطعت عهداً ألّا أتذمّر أو أشكو بعد الآن، فيجب إخراج تلك الجروح البالغة والمُميتة بعيداً، وذلك حتّى أستطيع خدمة الآخرين، فهذا هو أحد أغراض الإيمان الدينيّ الذي يجعل الإنسان يحافظ على بَسالَة قلبه، وأن يُحارب تلك الآلام والجروح حتّى النهاية، بابتسامة قانعة على الوجه، وربّما لا يكون هذا طموحاً نبيلاً في حدّ ذاته، إلّا أنّه أفضل من فكرة الاستسلام إلى ذلك المصير، وللحصول على قدرٍ حياتيّ أفضل إلى هذا المدى الذي يتوجّب فيه على المرء منّا أن يعمل جاهداً، وبكلّ طاقته، من أجل قيمة الصداقة النبيلة، وبإيمانٍ عميق راسخ لا يتزحزح في خطة الإله العظيمة بأنّ كلّ ما حدث كان إلى الأفضل».

لقد آمنت هيلين تماماً أنّ إعاقتها البصريّة تلك هي جزء لا يتجزّأ من الخطّة الإلهيّة، ومن ثمّ، فقد استحالت معاناتها وكفاحها ضدّ تلك العقبات والتحدّيات إلى منحة من الأمل، فقد عملت على تقديمها إلى الآخرين، وقد كتبت في هذا السياق ما يلي:

«إنّ التحديات، بكلّ أنواعها، هي أشكال للتهذيب النفسيّ لتطوير المرء ذاتياً، ومنحه حريّته الحقيقيّة الأصيلة التي ينشدها، فتلك العقبات هي بمنزلة أدوات تجعلنا نضع أيدينا على ذلك الحجر الصوّان الذي يقوم بدوره بحجب مواهبنا وقدراتنا الغليا، لتقوم بإزالته بعيداً عن طريقنا، فتلك العوائق هي وحدها التي تزيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عصابة العمى، وتعمل على تمزيقها بعيداً عن أعيننا، لتنزع عنّا قناع التجاهل، وتجعلنا نرى تلك الأعباء التي يحملها الآخرون، ونبدأ حينها في مشاركتهم مشاعرهم تلك، وخلق حالة من التعاطف المعنويّ من أعماق قلوبنا».

يا لها من فكرة قويّة مُلهِمَة! عندها يصبح استخدامنا لتحدّياتنا وعقباتنا نافعاً! ما دمنا لا نسمح لها بإحباطنا أو دفعنا إلى الشعور بالشفقة والأسى. وما دامت تلك التحدّيات قادرة على أن توقظ تعاطفنا تجاه الآخرين، التي ربّما تتحوّل بدورها إلى وسائل تساعدنا في رؤية الآخرين والإحساس بمعاناتهم.

لقد آمنت هيلين كيلر بتلك الفكرة بشدّة، شاعرةً أنّ نداءها الداخليّ سيلعب دوراً فاعلاً في تقليل معاناة الآخرين، والمشاركة أيضاً في رفع مستوى سعادتهم، ولقد كتبت كيلر في مذاكّراتها:

«لقد عثرت على السعادة والرّضا من خلال عملي مع أولئك الرجال والنساء في كلّ مكان حول العالم المُمتدّ الواسع، ولم أسأل نفسي ذلك السؤال العبثيّ السخيف، وأقول: هل يُفتَرَض بي العمل مع المسيحيين أو اليهود أو البوذيين؟ لأنّني أدركت بطريقةٍ ما أنّ مشيئة الربّ جعلتني قادرة على تخفيف آلام وأحزان هؤلاء وذويهم، ورفع مستوى سعادتهم وفرحهم واستمتاعهم بالحياة، وفهم واستيعاب حكمتها الأكيدة».

ربّما يرجع ذلك إلى تلك الخدمة الإنسانيّة التي تعتمد فكرتها الأساسيّة الأصيلة على الرحمة والشفقة، وتجاوز وتخطّي كلّ الفوارق والاختلافات الدينيّة. وهذا الأمر، في حدّ ذاته، قد ساعد هيلين كيلر في التّحرّر من حماستها الأولى لتعاليم عالِم اللاهوت السويديّ، الذي كان يدعى «إيمانويل سفيدبنوري»، ومكّنها ذلك الفهم من تجاوز المفهوم القديم للكنيسة، وحينها كتبت تقول:

«أعتقد أنّ السيّد إيمانويل لم يكن يقصد بكلمة «الكنيسة» المنظومة الكنسيّة المُجرّدة، وإنّما قصد من وراء ذلك تلك الزمالَة الروحيّة لمجموعة من الرجال والنساء المُفكّرين، الذين قضوا حيواتهم في خدمة البشريّة لأطول فترة مُمكِنَة».

لقد أطلق عليها لفظ «الحضارة»، التي ينتج عنها دين صحيّ كونيّ، وكذلك المزيد من النوايا الحسنة الحميدة، والتفاهم المُشتَرَك المُتبادل بين البشر، وخدمتهم جميعاً من دون النظر إلى عقيدة أو طقوس دينية أو شعائر مُحدَّدَة، ولقد أكّدت هيلين أيضاً أنّها لَمّا توصّلت إلى تلك الدرجة من الفهم والاستيعاب، ساعدها ذلك في تخطّي وتجاوز كلّ ما يقيّدها ويُكبّلها، وكتبت في ذلك الصدد تقول:

«إنّ هذه الرسالة السّمحاء قد غنّت لها الكثير، وقد أكسبت أفكارها اللون والحركة، وباتت أكثر فاعليّة وجدوى. لقد مَجّد ذلك النّهج قيم الحياة والتسامح والحبّ والحقيقة لديها، وكان هذا بمنزلة أقوى دافع تملكه ليساعدها في تجاوز عقباتها».

مَن هو سفيدبنوري، وماذا كانت رسالته التي أثّرت في هيلين كيلر؟

إيمانويل سفيدبنوري (١٦٦٨ - ١٧٧٢) هو عالِم سويديّ وفيلسوف، آمن أنّ الله أنشأ «كنيسة جديدة» مختلفة كلّ الاختلاف عن تلك التي يعرفها غالبية الناس، وأنّ «الكنيسة الجديدة» تلك تعتمد على الروح الدينية أكثر من كونها تعتمد على الشكليّات والمظاهر، تلك الروح التي قد ساعدت الناس في تبيُّن الحقيقة وإدراكها وفهمها بعيداً عمّا يُسمّى بالعقيدة، وما يُسمّى أيضاً بالمُعتقدات الخرافيّة، التي جاءت من تلك الحقبة الغابرة. قالت هيلين إنّ إيمانويل قد أسمى منهجه ذاك بالمسيحيّة الصحيحة، وقالت إنّ ما أعجبها في أسلوب ذلك العالم الحكيم والفيلسوف أنّه قد أراد من الناس أن يستمعوا إلى صوتهم الداخليّ بدلاً من أن يستمعوا إلى الآراء والمُجادلات والمُناقشات المُتعَصّبة، ولقد أُعجِبت هيلين كيلر للغاية بما قاله الفيلسوف إيمانويل فيما يتعلّق باعتقاده أنّ جميع الناس سينقذهم الله، بغضّ النظر عن دينهم وخلفيتهم الاجتماعيّة والثقافيّة.

لقد كتبت هيلين كيلر، ذات مرة أيضاً، في كتابها المُعنون باسم (ديانتي)، الذي تمّ تغيير عنوانه ونشر مؤخّراً باسم (ذلك النور الذي أضاء ظلامي):

«لقد أخبرتني مجموعة من المُتعَصّبين أنّ الربّ سيُعاقب كلّ مَن هو غير مسيحيّ، وحينها تمرّدت روحي بشدّة على هذا لأنّني كنت أعرف أناساً رائعين مؤثّرين، والذين قد عاشوا وماتوا من أجل الحقيقة ورفعة شأنها في تلك البلاد الوثنيّة! فكيف

يستقيم الأمر إذاً؟ لكن، لَمّا قرأت كتاب الفيلسوف إيمانويل، المُعَنوَن باسم (الجنّة والنار)، قرأت فيه أنّ الربّ سيمنح كلّ الناس أفكاراً جديدة، وحياة جديدة، وبهجة تتلذذ بها كلُّ العقول. وبناءً على ذلك، فإنّه لن يتمّ إدانة أيّ شخص قد آمن بالربّ وعاش بشكلٍ جيّد».

لقد كانت تعاليم العالِم إيمانويل ثوريّة جداً في عصره، وقد لاقت الكثير من الانتقاد اللاذع حينها، وتحديداً عندما أعلن صراحةً أنّ الربّ سينقذ كلّ الناس، وليس «المسيحيين» وحدهم، كذلك أيضاً عندما صرّح أنّ الجنّة والنار ليستا مكافأةً أو عقاباً بالمعنى الماديّ، لكنّها مسائل روحيّة مجازيّة، تتواجب وتتطابق مع أحوالنا الداخليّة، بمعنى آخر؛ أي أننا نحكم على أنفسنا بالاختيارات التي نصنعها بأنفسنا. وكان السيّد إيمانويل يعود إلى تلك الفكرة في أغلب الأحيان، التي عمدت هيلين إلى تلخيصها في كلمات عدّة، فكتبت:

«إنّ إيمانويل الفيلسوف والعالِم، يكشف لنا أنّ تلك الحالة التي ندخل فيها بعد الموت، نابعة من دوافعنا وأفكارنا وأفعالنا، وبناءً على ذلك، فإنّه خطؤنا نحن، إذاً، إذا عشنا واعتقدنا أنّنا مطرودون من الجنّة، لأنّنا نذهب إلى هناك كلّما كان في مقدورنا أن نتوصّل إلى فكرة عظيمة، ونظلّ هناك عندما تتجلّى سعادتنا في خدمة الآخرين ومساعدتهم».

تلك الفكرة الخاصّة بحكمنا على أنفسنا، تعود إلى فهم هيلين كيلر الخاصّ بطبيعة الربّ والدين، فلقد كانت هيلين تنفر دائماً من فكرة ذلك الإله الغاضِب المُنتَقِم المُنتَقِد الذي لا يتمّ إرضاؤه إلّا بإسالة الدماء. كذلك وجدت راحة هائلة في وصف العالِم إيمانويل لصورة الربّ المُحِبّ الذي لا يمكنه أبداً أن يغضب من عباده، ولا يمكن أن ينظر إليهم نظرة مَقت أو استياء.

لقد تمكّنت تلك الأفكار الجديدة، التي عرضها الفيلسوف إيمانويل، أن تحلّ مَحلّ تلك الأفكار القديمة، وقد أضاء ذلك قلب هيلين، وأنار بصيرتها، إذ بات بإمكانها حينها التمييز بين الإله الحقيقيّ وتلك الصورة المُفتَعلَة المُزَيَّفَة التي جاءت نتيجة قراءة مغلوطة للعالَم، وقد شدّد إيمانويل في كتابه المُعَنون باسم (المسيحيّة الصحيحة)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على عدالة الإله، فيما يلي:

«أعتقد أنّه بات واضحاً للغاية الآن أنّ الربّ لا يُعاقِب أحداً، ولا يلعن أحداً، ولا يُلقي بأحد إلى الجحيم، ولا يُعاقِب أحدنا بالموتِ الأبديّ، ولا يغضب علينا، ولا يُصيبنا بالويلات والعذابات والجروح، بل هو على النقيض، إله غير غاضِب على الإطلاق، فهو لا يُحِبّ أبداً أن ينظر إلى أحدنا باستياء أو حَنَق».

وقد تأمّلت هيلين تلك التعاليم السّمحاء، وآمنت، في قرارة نفسها، أنّ من المؤكّد أن يتمّ عبادة ذلك الربّ المُحِبّ عن طريق تقديم الخدمات للآخرين، فكتبت هيلين:

«وسواء أكنّا أصحّاء أم مرضى، وسواء كنّا نرى أم مُصابين بالعمى، وسواء أكنّا أحراراً أم مقيّدين، فنحن هنا على هذه الأرض لتحقيق غرضٍ ما، ويتوجّب علينا عبادة الإله عن طريق القيام بالمزيد والمزيد من الأفعال الطيبة الصالحة التي تنشد خدمة الجميع دون استثناء، ويتوجّب علينا الإكثار من تلك الأفعال الحميدة الخيريّة أكثر من قيامنا بتلك الصلوات ومظاهر التّديُّن الشكليّة».

وأضافت:

«فالمعبد أو الكنيسة من دون الأفعال الطيّبة الصالحة، هما خاويان تماماً من الدّاخل، فوحدها تلك الأفعال هي التي تملؤهما بالقيم».

وهيلين كانت تتوق حقاً إلى خدمة الآخرين، إلّا أنّها كثيراً ما كانت تأسف لامتلاكها المزيد من القيود الجسديّة، لكنّها في رسالتها التالية هنا، يمكننا أن نتعرّف إلى ذلك الأمل الذي قد منحها إيّاه العالِم والفيلسوف إيمانويل:

«إنّ أكثر صور العزاء والمواساة التي قدّمها لي السيّد إيمانويل أنّنا في العالم الآخر ستتحرّر كلّياً من ماديّتنا تلك، وقصور مُحيط عملنا هذا، وسنكون أشبه بكائنات نورانيّة لا حدود لقدراتها».

إنّ إحدى أبرز السمات التي اتّصف بها نهج عالِم اللاهوت إيمانويل، هي حرصه على تفسير آيات الكتاب المُقدّس على نحو جديد، فبالنسبة إليه، كلّ حرف من حروف الإنجيل سامٍ ومُقدّس حقاً. لكن، في الوقت نفسه، كان يُحاول التمييز بين

جسد المرء والروح التي تسكنه، وكذلك أيضاً حاول توضيح الفرق بين المعنى الحرفي للكلمة في النصوص المقدّسة وتلك الحقيقة العميقة الكلّيّة التي تشتمل عليها. وقد ألّف عدداً من المجلّدات لشرح المعنى الروحي للكتاب، وهذا ما كتبته هيلين كيلر حول ذلك الأمر:

«لقد حاول الفيلسوف إيمانويل فصل الشوائب عن الذهب خلال محاولته شرح تفاسير النصوص المقدّسة، وحاول فصل تلك النصوص التي تنتسب إلى البشر، وتلك التي تنتسب إلى الربّ. لقد كانت لديه موهبة حقيقيّة في مسألة فك شيفرة تلك الرمزيّة الدينيّة تماماً بتلك الطريقة التي فسّر بها يوسف أحلام فرعون في أثناء وجوده في الأراضي المصريّة التي كان يحكمها الأخير. وفي الواقع، لم يتمكّن قادة وزعماء الدين، الذين سبقوه، من أداء تلك المهمّة، حيث كانوا يفسّرون الكتاب المقدّس من دون فهم ولا معرفة، وعندما كانوا جميعاً عاجزين عن تفسير ذلك الكتاب، حاول العالِم إيمانويل القيام بدوره في ذلك الصدد، وكشف عن موهبته الحقيقيّة في تفسير كتاب الربّ ومجده».

لقد مكّنتها ترجمة الفيلسوف العالم إيمانويل من إدراك معنى آخر في أعماق روحها، وقد كتبت هيلين تقول ردّاً على ذلك:

«أنا سعيدة جداً لأنّني اكتشفت، أخيراً، أنّ مدينة الربّ ليست تلك المدينة الغبيّة الساذجة من الشوارع الزجاجيّة والجدران الياقوتيّة، لكنّها تلك المدينة المؤسّسة على كنوز الحكمة والأفكار النافعة والتأثيرات النبيلة السامية الرفيعة، وها أنا ذي تدريجياً أصبحت قادرة على استخدام ذلك الكتاب المقدّس، الذي أصابني بالحيرة لفترة طويلة، كأداة للتنقيب عن الحقائق النفيسة تماماً، كما بإمكاني استخدام جسدي المعاق المحدود من أجل التحليق عالياً في سمواتِ روحي غير المحدودة».

لم تعد تشعر هيلين بذلك القيد مجدّداً، تحديداً عندما قرأت ما كتبه إيمانويل حول أنّ صوت الإله عندما تحدّث عبر السموات لم يكن صوتاً بطبيعته الفيزيائيّة المعهودة، لكنّه كان أقرب إلى حالة روحانيّة، والتي حينها تحتلّ ذلك الفرد، وعندها تنكشف الكلمة وتصبح تجلّياتها مفهومة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كانت هيلين تنظر إلى كتابات الفيلسوف وعالِم اللاهوت إيمانويل على أنّها، بلا شك، كتابات كاشفة وناقدة، وأطلقت عليها «عقيدة العيش الجيّد، والتفكير السليم»، حتّى إنّ تفسيرها لذلك جعلها تؤمن أنّ رسائل السيّد إيمانويل تشتمل بدورها على مضمون النصوص العبريّة والإغريقيّة القديمة عينها، وكتبت تقول إنّ تلك النصوص كلّها، سواء كتاب العهد الجديد اليونانيّ أم النصوص العبريّة جميعها، كانت تخدم الغرض الروحانيّ نفسه، وتكشف عمّا تعنيه بتلك اللغات المتعدّدة، وأنّ مبتغاها هو أن يعمل البشر جميعهم لخدمة بعضهم بعضاً من أجل سعادة الإنسانيّة جمعاء.

كيف تعرّفت هيلين كيلر إلى إيمانويل سفيدبنوري؟

كما عرفنا، إنّ تلك الرؤية المُتَبَصِّرَة لتعاليم إيمانويل سفيدبنوري كانت مصدر إلهام هيلين كيلر، وكانت رسائله تلك، قد وصفتها بأنّها أداتها للتغلُّب على تحدّياتها وتجاوز عقباتها. وسؤالنا الآخر هو: كيف تعرّفت هيلين إلى رسائل العالِم إيمانويل سفيدبنوري؟

تعدُّ هذه الحكاية بمنزلة قصّة داخل القصّة، ويمكننا القول إنّها بدأت مع معرفتها للمهندس الأشهر عالمياً، والمخترع العظيم، ألكساندر غراهام بيل، الذي كان يبذل قصارى جهده في البحث عن طرائق لمساعدة ضعاف السّمع، ولقد بدأ اهتمامه في ذلك المجال لأنّ أمّه كانت صمّاء، وزاد تحمّسه وتعمّقه في ذلك المجال عندما تزوّج امرأة صمّاء. وخلال مواصلته أبحاث التحدُّث والسّمع، حينها قادته أبحاثه مصادفةً إلى اختراع الهاتف، وقد حصل لأجل اختراعه ذاك على جائزة فولتا التي كانت تُقَدَّر في حينها بخمسين ألف فرنك فرنسيّ، وبما يُعادِل ٢٠٠ ألف دولار أمريكيّ اليوم.

في عام ١٨٨٠، في العام نفسه الذي وُلِدَت فيه هيلين كيلر، أنشأ غراهام بيل مكتب فولتا في واشنطن، للاهتمام بدراسة كلّ الأبحاث التي تخصّ الصّمم، وللبحث أكثر عن تلك الحالة المرضيّة. وفي ذلك الوقت، كان جون هيتس يعيش في واشنطن، وتمّ توظيفه كمُشرِف أوّل في ذلك المكتب، وقد عمل كقُنصل عامّ لسويسرا، وكذلك كان أصَمّ بطريقةٍ جزئيّة، وكان قارئاً نَهِماً لكتابات الفيلسوف والعالِم إيمانويل سفيدبنوري. وسوف نعود إلى ذلك الجزء من القصّة لاحقاً. في ذلك الوقت نفسه،

في توسكومبيا، في ولاية ألاباما، كان السيّد آرثر كيلر وزوجته كاتي يبذلان قصارى جهدهما من أجل محاولة تربية ابنتهما هيلين، التي كانت حينها في السادسة من عمرها، وكانت قد خسرت بصرها وسمعها بشكلٍ كامل، وباتت في وجهة النظر تلك، وانطلاقاً من ذلك المنظور: «حالة ميئوس منها».

لم يكن آل كيلر قادرين على فهم أنّ عجز ابنتهما الخارجي ذاك ما هو إلّا انعكاس لفشل محاولاتها الداخليّة من أجل التواصل مع العالم الخارجي. وبيأسٍ واضح، لم يكن لديهما أيّ فكرة أو معرفة عن كيفيّة تعاملهما مع طفلتهما «صعبة المراس» تلك، ومن ثمّ، فقد بحثا كثيراً، وحاولا طلب العون من السيّد ألكساندر غراهام بيل، وفي عام ١٨٨٦، وافق المخترع غراهام بيل على إجراء مقابلة مع السيّد آرثر كيلر وابنته هيلين. وقد أجريت تلك المقابلة في واشنطن إلى مائدة العشاء، وخلال ذلك اللقاء، جلست الطفلة هيلين في حِجر السيّد غراهام بيل، وأخذت تتحسّس بيدها لحيته الطويلة، وأحسّت بطيبته، وبعطفه الشديد، من خلال حاسّة اللمس. بعدها بسنواتٍ لاحقة، كتبت هيلين عن ذلك اللقاء تقول:

«في الواقع، لقد كان هذا اللقاء بمنزلة الباب السحريّ الذي نقلني من الظلام والأفول إلى النور والضياء».

بعد انتهاء تلك المقابلة، كان غراهام بيل قد نصح بضرورة تعيين مدرّس خصوصي من إحدى مدارس برينكز من أجل الطفلة الكفيفة، في ماساشوستس، ولقد نفّذا اقتراح السيّد بيل. وفي ٣ من شهر مارس، لعام ١٨٨٧، وصلت الآنسة آن سوليفان إلى توسكومبيا، وكانت حينها في الحادية والعشرين من عمرها، وقد عملت مدرّسة خصوصيّة لهيلين كيلر.

بالطبع، إنّ قصّة آن سوليفان وهيلين كيلر هي قصّة معروفة للجميع، وفي الحقيقة هي أشبه بقصّة (صانعة المعجزات) الأسطوريّة، فتلك المُدرّسة الصغيرة سنّاً، التي تدعى آن سوليفان، ساعدت تلك الفتاة الصمّاء الكفيفة، هيلين كيلر، في إيجاد لغة مُشترَكة، وفهم للحياة بمعناها الشامل الواسع، ولقد أطلقت عليها هيلين «الصحوة العقليّة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صحوة هيلين كيلر الروحانية

لكنّ القصّة لا تنتهي عند ذلك الحدّ، فبعد مرور عام في ألاباما، تقرّر أنّ هيلين، الطفلة البالغة الثامنة من عمرها، يتعيّن عليها أن تذهب إلى بوسطن لاستكمال دراستها في مدرسة برينكز للمكفوفين.

تمّ تجهيز وإعداد كلّ شيء، وبدأت هيلين كيلر دراساتها في مدرسة برينكز تحت إشراف ورعاية آن سوليفان، واستمرّ كلّ شيء على ما يُرام، وقد ازدادت شهرة هيلين كيلر، وإبّان عامها الثالث في تلك المدرسة، تمكّنت هيلين في سنّ الحادية عشرة من عمرها، من تأليف قصّة قصيرة لمخرج المدرسة مايكل أنجوس، وأطلقت على تلك القصّة اسم (ملك الجليد)، وأرسلتها إليه هديّة في عيد ميلاده، وقد ابتهج السيّد أنجوس، مدير المدرسة، بقصّة هيلين كيلر، وحاول أن يبذل قصارى جهده من أجل نشرها، وقد اشتهرت القصّة، وانتشرت على نطاق واسع. لكن، لاحقاً، تمكّن أحد القرّاء النابهين من ملاحظة أنّ قصّة هيلين تُشبه إلى حدّ كبير إحدى القصص الأدبيّة التي تمّت كتابتها قبلها بسبع عشرة سنة، والتي تنتسب إلى الكاتبة مرغريت كانبي، التي أسمتها (جنيّات الجليد)، فالقصّتان كانتا مُتشابهتين جداً، حتّى إنّ عباراتهما كادت تتطابَق، وكان هذا لسوء حظّ هيلين ودهشتها، فعندما وقع ذلك الأمر جرى اتّهام هيلين كيلر بالسرقة الأدبيّة، ومن ثمّ، فقد سار التحقيق على نحوٍ غير جيّد.

لقد كان هذا وقتاً عصيباً لدى هيلين التي لم تتمكّن من فهم واستيعاب ما الذي حدث، ولماذا تمّ اتهامها بالسرقة، وعندما تذكّرت تلك التجربة في وقتٍ لاحق، كتبت هيلين كيلر تقول:

«لم يتجرّع أيّ طفل في العالم كأس المرارة التي تجرّعتها. لقد احتقرت نفسي، وجلبت الشكّ إلى أولئك الذين أكنّ لهم المزيد من الحبّ. لَمّا رقدت في فراشي تلك الليلة، أخذت أبكي وأنتحب بشدّة ومرارة، ثمّ شعرت بأنّ جسدي بارد جداً، وحينها تخيّلت أنّني سأموت قبل الصباح، وهذه الفكرة في حدّ ذاتها أراحتني جداً، ولَمّا استمرّ التحقيق، استمرّ معه المزيد من الشائعات حول التضليل وخيانة الأمانة والاحتيال والغشّ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد وصلت تلك الشائعات في وقتٍ لاحق إلى مكتب السيّد ألكساندر بيل في واشنطن، الذي كان يُراقِب تطوّر هيلين كيلر بمزيدٍ من الاهتمام، ولم يكن ليصدّق تلك الشائعة، وقد طلب بيل إلى مُشرِف مكتبة جون هيتز الذهاب إلى بوسطن وزيارة مدرسة بيركنز للمكفوفين، واكتشاف حقيقة ذلك الأمر.

لقد كان غراهام بيل يؤمن بصدق هيلين للغاية، وكان يثق ببراءتها بشدّة، وقد كتب يقول في ذلك الصدد:

«أشعر أنّ تلك الطفلة تتمتّع بالمزيد من المواهب والقدرات غير المحدودة الهائلة التي لم أرَ طفلاً آخرَ في حياتي بأسرها يتمتّع بها».

لَمّا تابع جون هيتز مسار التحقيقات، واقترب من الطفلة هيلين كيلر، أيقن بصدق وجهة نظر غراهام بيل، ووجد نفسه هو الآخر مُعجَباً بشدّة بتلك الطفلة العمياء، وقد تأكّد بنفسه من أنّ هيلين هي طفلة أعجوبة، تتمتّع بذاكرة حفظ مدهشة، وقد تأكّد من أنّ في مقدورها حفظ المزيد والمزيد من المعلومات الهائلة واسترجاعها لاشعوريّاً بعد سنواتٍ لاحقة، وهذا أمر نادر الحدوث، وقد اكتشف أيضاً أنّ قصّة (جنيّات الجليد) قد قُرئت على هيلين وهي في الثامنة من عمرها، وأنّها تتمتّع بالقدرة على الاحتفاظ بالمعلومات في بنك الذاكرة الخاصّ بها بطريقة لاشعوريّة، وهذا في حدّ ذاته قد مكّنها من استعادتها لاحقاً عندما باتت في الحادية عشرة من عمرها بعدما تعرّفت المزيدَ من القصص والخبرات الأخرى. أراح ذلك التفسير هيلين، وتفّت تبرئتها من تلك التهمة بالسرقة الأدبيّة، وقد أوشكت تلك المشكلة تحديداً أن تحلّ عندما راسلت مؤلّفة القصّة الأصليّة مرغريت كانبي، مؤلّفة حكاية (جنيّات الثلج)، آن سوليفان، المدرّسة الخصوصيّة لهيلين، وقد كتبت إليها بحفاوة وكَرَم، في خطابها هذا، وطلبت إليها أن تُرسِل قبلاتها ومحبّتها الحارّة إلى هيلين، وأن تخبرها ألّا تشعر بالسوء حيال الأمر، لأنّها لم ترتكب أيّ خطأ على الإطلاق. وقد أضافت أنّ هيلين كيلر قد طوّرت من القصّة وحسّنتها! وبهذا، انتهت قضيّة قصّة (ملك الجليد)، وقد بدأت صداقة هيلين مع جون هيتز، التي دامت قرابة الستّة عشر عاماً القادمة، ونتج عنها تلك الرحلة الداخليّة المُدهشة التي أسمتها هيلين (الصحوة الروحانيّة)،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكتبت هيلين في هذا الصدد تقول:

«لقد اعتاد جون هيتز مُرافقتي في ساعات الصباح الباكرة، حيث كانت قطرات الندى تُقبّل العُشب والأشجار، وحيث كانت زقزقة العصافير تحتلّ الأرجاء، وكنّا نتجوّل معاً عبر الغابات الكثيفة الساكِنَة، والمروج والمراعي المُعطّرَة، ونمرُّ إلى جوار تلك الجدران الحجريّة الخلّابة لمنطقة رانثام، ولقد جعلني أشهد كلّ ذلك الجمال الطبيعيّ عن قُرب، وجعلني أستمع إلى نداء الطبيعة، وأفهم مغزاها العميق. ولَـمّا كان يتحدّث إليّ كنت أشعر بأنّ ذلك العالم الآسِر البَهيّ يُشرِق في نفسي مُمَجّداً جمال وعَظَمَة الخلود، وكنّا نتوقّف قليلاً عندما كنت أشعر بتمايل أوراق الشجر وتأرجحها في خِفّة وشاعريّة، وكذلك عندما كنت أتحسّس انحناءات الأزهار، وتعرُّجات الأغصان، وأمواج الذرة، وحينها كان جون يقول لي: «إنّ تلك الرياح العظيمة الهائلة التي تملأ أنفاس الطبيعة الأمّ إنّما هي رمز لروح الإله»».

وخلال صداقتهما الطويلة، حرص هيتز على أن يُقدّم لهيلين كيلر عدداً هائلاً من كبار مفكّري العالم، وكذلك قدّمها إلى تعاليم الفيلسوف وعالم اللاهوت إيمانويل سفيدبنوري، وقد أطلقت هيلين على جون هيتز لقب «أبي الروحي»، إذ عدّها هيتز ابنته المحبوبة العزيزة، وقد كان أوّل كتاب شاركه جون مع هيلين من كتابات العالِم سفيدبنوري، وهو كتاب (الجنّة والنار)، بطريقة برايل، وقد كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت، فكتبت لاحقاً في هذا الصدد تقول:

«لقد أعطاني جون هيتز نسخة كتاب (الجنّة والنار) لإيمانويل سفيدبنوري لأقرأها بطريقة الحروف البارزة، وقال إنّني ربّما لن أفهم معظم محتوى ذلك الكتاب في بادئ الأمر، لكن هذا يعدُّ تدريباً جيّداً للعقل، وسوف تتطابق تلك الصورة من الإله مع صورة الإله المُحِبّ المرسومة في عقلي وتصويري الخاصّ».

ربّما كانت هديّة كتلك لا تلقى قبولاً لدى أيّ طفل، لكن كان الأمر مُختلفاً تمام الاختلاف مع هيلين كيلر، التي قدّرت ذلك الكتاب للغاية، وبعد مرور سنوات تالية عدّة، عندما بدأ فهمها يتطوّر شيئاً فشيئاً، بدأت هيلين تُقدّر محتوى ذلك الكتاب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وقد كتبت في ذلك الصدد:

«شعرت بالبهجة الشديدة عندما بدأت مُطالعة كتاب (الجنّة والنار) للمرّة الأولى، وقد شعرت وكأنّ هناك نوراً مُباغتاً قد غمر قلبي من دون مقدّمات تسبقه، وكانت نبضات قلبي تتسارع في سعادة عندما كنت أجلس على عتبات الدرج أنتظر لحظة وصول معلّمتي، لقد غمرتني مشاعر الحبّ والرحمة والشفقة، التي كنت أشعر بها على الدوام. لقد أكّد لي ذلك الكتاب هذا الشعور العميق، ولقد زادني معرفة بذلك الانفصال ما بين رغبات الجسد والروح.

لقد أدركت تواً الفرق بين مملكة الروح الكلّيّة غير المحدودة، وتلك الشظايا المُجزّأة والاحتمالات غير العقلانيّة، التي تشكّل الجانب الجسديّ المحدود.

تركت نفسي تنغمس في ذلك النور غير النهائيّ، وحاولت أن أتحلّى بتلك الإرادة الحُرّة، وحاولت أن أحلّ كلّ ألغاز وأحاجي الحياة، فكلمتا «الحبّ»، و«الحكمة» أكثر كلمتين أردت أن أتتبعهما خلال قراءتي بتلك الطريقة الخاصّة بالمكفوفين، وقد أشعلت طاقتهما في نفسي القوة التي قادتني ودفعتني إلى الأمام.

لم أكن أعرف صِدقاً هل أنا مَن التجأت إلى ذلك الإيمان أو أنّه مَن سكنني منذ قديم الأزل؟ كلّ ما يمكنني قوله هو أنّني أمسكت بذلك الكتاب الضخم الذي قُدّم إليّ بطريقة الأحرف البارزة، وقد تفحّصته وطالعته بروح تلك الفتاة الشابّة الطامحة، التي شعرت وكأنّ أشعّة شمس المعرفة قد غمرتها بنورها، وأسقطتها في لذّة البحث والاكتشاف».

ابتهجت هيلين لأنّها قد عثرت أخيراً على طريقة تُمكّنها من قراءة عالم الإله، التي قد تطابقت مع ما كانت تؤمن به بشدّة في قرارة نفسها، وقد كتبت في هذا الصّدد:

«لم أكن مُتديّنة بالمعنى الخاصّ بممارسة الطقوس والشعائر، وعلى الرّغم من ذلك، فقد غمرت السعادة قلبي بعد أن تكشّفت لي صورة الإله الكلّيّة، ذلك الإله المُحِبّ، بعد أن تلاشت كلّ تلك الظِلال التي كانت قد تراكمت حول صورته بسبب تلك العقائد والمذاهب الدينيّة المُتعصّبة، المُتناحِرة فيما بينها.

لقد بات الآن عالم الإله مُحرّراً أمامي من كلّ تلك الأشياء التي كانت بدورها

تحجب صورته الحقيقيّة وتُقدِّم لنا صورة وهميّة لا تُعبِّر عن حقيقته الأصليّة، وإنّما تعبّر بشكلٍ أكيد عن همجيّة ووحشيّة تلك المذاهب والديانات العقائديّة فحسب، لكن بعد أن تكشّفت لي حقيقة الإله العظيم غمرت السعادة قلبي».

ولا عجب أنّ هيلين كيلر حينها قد شعرت بالامتنان العميق الحقيقي لذلك الكنز الروحيّ الذي أهداه إليها جون هيتز، وساعدها في قراءة المشهد الدينيّ على نحوٍ أوضح.

في ٨ أغسطس من عام ١٩٠٤، لَمّا كانت هيلين كيلر في الرابعة والعشرين من عمرها، كتبت إليه خطاباً تقول فيه ما يلي:

«أعترف أنّني في بعض الأحيان أشعر بأنّ إعاقتي تُشكّل عبئاً ثقيلاً عليّ، كما أنّي أعترف أيضاً أنّني أشعر بالضجر والسأم من مسألة تَلمُّس طريقي وتحسّسه بيدي، فأنا أشعر أحياناً أنّ تحسّس طريقي عبر ذلك الظلام الدامس، أقرب إلى فِعل لن ينتهي أبداً، وفي أوقاتٍ كتلك، تتضاعف رغبتي في الحصول على الحريّة، ويزداد حزني وألمي من أجل هؤلاء المُحيطين بي. لكن، حينما أتذكّر تلك الحقائق التي زوّدتني بها في كتابك هذا، أشعر بقوّتي مُجدّداً، وأحسّ بأنّ المرح يحتلُّ روحي الحزينة، ويملأ أرجاءها.

في أثناء كتلك، أشعر بأنّي لم أعد كفيفة أو صمّاء، لأنّ روحي باتت قادرة على رؤية كلّ هذا المجد والعظمة الموجودة وراء ذلك الجسد الماديّ الفاني، وحينها أكون قادرةً أيضاً على سماع أغنية الحبّ المُنتصِر، القادرة على تخطّي اضطرابات ذلك العالم».

بعد مرور أربع سنوات لاحقة، في عام ١٩٠٨، مات جون هيتز بسبب نوبة قلبيّة في عمر الثمانين، لكنّه عاش في ذاكرة هيلين، إذ إنّه كان الأب الروحيّ لها، وكان أقرب إلى الملاك الذي أضاء عالمها في أحلك سنوات حياتها. وقد كان لقاؤها بالسيّد ألكساندر غراهام بيل قبل ذلك بمنزلة الباب السحريّ الذي استطاعت عن طريقه الانتقال من الظلام إلى النور. ففي أيّ حال، لقد كانت مُدرّستها آن سوليفان هي من تُمثّل «الصحوة العقليّة»، وقد كان جون هيتز هو من يُمثّل «الصحوة الروحانيّة»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي ألهمتها قراءة تعاليم العالِم والفيلسوف إيمانويل سفيدبنوري.

المصلحة الاجتماعية

كان لهيلين الكثير من المعجبين، لكنّ أحد أشدّ المعجبين بها هو الكاتب الأمريكي الفكاهيّ الشهير مارك توين، الذي أطلق عليها اسم «معجزة الزمن»، وقد كتب عنها يقول:

«على الرّغم من أنّ هيلين كيلر كانت صمّاء وعمياء منذ أن كانت تبلغ عاماً ونصفاً من عمرها، إلّا أنّنا إذا ما نظرنا إليها الآن، فستجد أنفسنا في حضرة معجزة حقيقيّة تتحرّك بيننا، وقد استطاعت تلك الأعجوبة أن تتجاوز اختبارات جامعة هارفارد في اللغتين اللاتينيّة والألمانيّة، والتاريخ الفرنسيّ والأدب، وكلّ هذه الأمور، وقد تمكّنت من إتمام كلّ ذلك على أكمل وجه، وبكلّ براعة، وبطريقة ليس لها أيّ علاقة بإعاقتها.

إنّ هيلين كيلر ليست من ذلك النوع الذي يكاد يعرف الأشياء، إنّها بارعة في فهم المعاني العميقة لتلك الأشياء والأمور، فذات مرّة قرأت لها مقالاً بديعاً كتبته عن إحدى الشخصيّات الشكسبيريّة، وكانت لغتها الإنجليزيّة مدهشة ورائعة، وتناولها للموضوع كان من منظور أحد العارفين، وكانت كتابتها ساحرة ومثيرة».

وقد كتب مارك توين أيضاً نصّاً آخر عن هيلين كيلر، وفي تلك المرّة عمد إلى مقارنة إنجازاتها بإنجازات نابليون بونابرت، فكتب:

«إنّ أكثر الشخصيّات المثيرة للاهتمام في القرن التاسع عشر هما نابليون بونابرت وهيلين كيلر، فلقد حاول نابليون أن يغزو العالم بالقوّة إلّا أنّه فشل، في حين حاولت هيلين أن تغزو العالم بقوّة العقل وقد نجحت!»

وعلى الرّغم من أنّ ما كتبه الكاتب الشهير مارك توين كان مبهجاً حقاً إلّا أنّه كان من المفترض أن يوضّح في نصّه السابق أنّ هيلين لم تكن ترغب في غزو العالم، لكنّها كانت مهتمّة بمساعدة العالم! فقد كان هذا هو الغرض الأساس من حياة هيلين كيلر بأسرها، فلقد كان شغلها الشاغل هو التخفيف من معاناة البشر، وبخصوص مقارنتها بذلك القائد الفرنسيّ الشهير، فقد كتبت هيلين كيلر في هذا الصّدد:

CamScanner

«أشعر في بعض الأحيان بأني القدّيسة والبطلة الشعبيّة الفرنسيّة جان دارك، فقد يتمّ الارتقاء بعالمي وحياتي بأسرها، فأنا أيضاً مثلها تماماً أسمع أصواتاً خفيّة تُناديني قائلةً:

«هيّا... انهض.»

وسأتبع ذلك مهما كان الثمن، وسأقوم بذلك مهما بلغت الصعوبات ومشقّة الطرق التي يتوجّب عليّ اتّباعها، سأقوم بذلك وإن تعرّضت للفقر والسجن والطعن والإيذاء».

لقد حملت هيلين كيلر حقاً لواء «الإصلاح الاجتماعي»، وقد قاتلت ببسالة من أجل رفع درجة الوعي لمأساة المُعاقين ومحنتهم، ولم تتوقّف الحركة الإصلاحيّة لهيلين كيلر عن مُكافحة أمراض العمى التي يمكن الوقاية منها، بل إنّها تبنّت المزيد من القضايا الأخرى، إذ إنّها نظّمت حملات تدعم حقّ المرأة في التصويت، في ذلك الوقت الذي لم يكن من الجيّد الإقدام على خطوة كتلك.

لقد أصبحت هيلين كيلر أيقونة حقيقيّة تقف في وجه هذا الكمّ من القهر والظلم الاجتماعي، ولقد تحدّثت بشجاعة ضدّ التحيّز العِرقي العنصري، وشجبت السياسات الفاسدة، واستنكرت الجشع التجاريّ، وحاربت أهوال الحروب وفظائعها، ثمّ عادت مُجدّداً لتلبية احتياجات الصمّ والمكفوفين. وبدورها، سافرت حول العالم ستّ مرّات، وتمكّنت من لقاء عدد من الشخصيّات البارزة المرموقة حول العالم، ولم تتحدّث إليهم فقط حول طبيعة الإعاقات، لكنّها تحدّثت أيضاً حول تلك القدرات الخاصّة التي يمتلكها أصحاب الإعاقات. وخلال زياراتها المتعدّدة إلى المدارس والمستشفيات، تأكّد عدد كبير من الناس حول العالم من أنّ هناك ما يمكننا جميعاً فعله من أجل خدمة الآخرين، وأنّ لكلّ شخص في الحياة دوراً وغرضاً يتعيّن عليه عمله على النحو الصحيح.

لقد أصبحت هيلين كيلر مصدراً للإلهام للمزيد حول العالم، وسواء تحدّثت عن إصابتها بالصمم أو العمى، أم أيّ شيء آخر، كانت تترك أثراً بالغاً في مسامع المُنصتين إلى خطاباتها الإصلاحيّة المهمّة، وفي أثناء لقائها مجموعة من الأطفال

الضمّ في أستراليا، قالت لهم:

«أعرف جيداً ذلك الطريق الذي تحاولون اتباعه الآن، ويمكنني أن أقول لكم الآن إنّكم ستواجهون عدداً هائلاً من العقبات والعوائق، لكن عليكم بالإيمان بأنفسكم جيداً، لأنّ في دواخلكم المزيد والمزيد من الكنوز التي ستمكّنكم، بكلّ سهولة، من تجاوز تلك العراقيل، وستقوم بتحويلها إلى مجموعة من المغامرات التي ستجعلكم لاحقاً تحملون لواء مساعدة الأجيال القادمة من ذوي الإعاقة».

غرض هيلين العميق

إنّ كلمات هيلين كيلر التي وجّهتها إلى أولئك الأطفال، والتي استعرضناها توّاً، تعطينا لَمحة عن مهمّتها الكبيرة وهدفها العميق، وقد وهبت حياتها من أجل القيام بالمزيد والمزيد من الحركات الإصلاحيّة الاجتماعيّة، وتنظيم الحملات المختلفة حول العالم من أجل مساعدة أصحاب الإعاقة، وكانت هيلين أيضاً تعرف في قرارة نفسها أنّ مسألة خلق حضارة روحانيّة جديدة ستتطلّب المزيد من الإصلاح الاجتماعيّ، وقد كتبت في ذلك الصّدد:

«ها أنا ذي الآن أرفع سلاحي ضدّ الفقر بحسبانه ظاهرة لعينة، وكذلك أرفض تلك المذلّة والمهانة التي يُسبّبها تأثيره، وفي الوقت عينه أجدني شديدة الإيمان بأنّ الخبرة البشريّة تؤكّد لنا أنّنا إذا لم ننجح في مواقعنا الحاليّة فلن ننجح في أيّ مواقع وظيفيّة في أغراض أخرى.

فالأمر أشبه بتلك الزنابق الجميلة التي تنمو قويّة ونقيّة، على الرّغم من أنّ محيطها قذر ودنيء وممتلئ بالأوساخ، فنحن أيضاً يمكننا القيام بذلك الدور نفسه من خلال مواقفنا الحياتيّة المختلفة، فإذا لم نستطع مساعدة العالم الذي نعيش فيه، حيث مواقعنا الحالية، فلا يمكننا أن نقدّم تلك المساعدة من أيّ مكان آخر، فالقضيّة الأهمّ هنا لا تركّز على البيئة، لكنّها تركّز على طبيعة أفكارنا التي نفكّر فيها كلّ يوم، وتلك المهام التي نخطّط للقيام بها، وطبيعتنا الذاتيّة، سواء كنّا رجالاً أم نساءً».

وعلى ذلك النحو أيضاً، آمنت هيلين، في أعماق نفسها، أنّ بمقدورها مساعدة

العالم على نحوٍ عمليّ أكثر من خلال نقل تعاليم إيمانويل سفيدبنوري، وقد كتبت في هذا الصدد أيضاً:

«في الواقع، لقد تساءلت إن كنت حقاً قادرة على تفسير وترجمة تلك الأفكار ونقلها إلى الآخرين، والتي تخصّ كتابات العالِم والفيلسوف إيمانويل سفيدبنوري، وهل بإمكاني حقاً مساعدتهم كما تمكّنت من مساعدة نفسي، وأعتقد أنّ هذا من دواعي سروري أن أكون قادرة حقاً على نقل تلك المعاني الروحيّة السامية إلى كلّ هؤلاء من أصحاب الإعاقة السمعيّة والبصريّة، لأنقل إليهم خلاصة تجربتي الخاصّة في ذلك الشأن».

وقد آمنت هيلين أنّ نقل تلك التعاليم الروحانيّة سوف يُسهِم، بشكلٍ أو بآخر، في خدمة هؤلاء الناس، ولقد شعرت كأنّها تُسدي إليهم خدمة إذا ما تمكّنوا من التنقيب داخل سموات أرواحهم الرّحبة المُمتدّة للعثور على تلك الكنوز التي سوف تساعدهم في خوض رحلتهم الروحيّة بأنفسهم، ومن ثمّ يمكنهم أيضاً تعرُّف مملكة الربّ. وقالت هيلين أيضاً، إنّ من خلال ذلك يمكنها أن تساعد أصحاب الإعاقة في السفر في رحلة خاصّة جداً إلى حيث الربّ، ليمكّنهم ذلك بدوره من الكشف على نقاط قوّتهم وأغراضهم الحياتيّة الخاصّة، وخرائط سلامهم الداخلي.

لقد كانت هيلين تفهم جيّداً حالات الشك والتخبُّط التي قد يُصاب بها المرء نتيجة عجزه الكامل عن إيجاد الإله أو التعرُّف إلى صورته المُحِبّة وسط كلّ تلك المفاهيم الدينيّة المُتشدّدة المغلوطة، وكذلك كانت تشعر بكلّ هؤلاء من أصحاب الإعاقة. وفي إحدى رسائلها الأخيرة إلى العالِم والفيلسوف إيمانويل سفيدبنوري، كانت هيلين تكشف له فيها عن ذلك التغيُّر الواضح الذي أربكها وأحدث ثورة في تفكيرها في أثناء فترة الجامعة، وكان خطابها ذاك قبل وفاة إيمانويل بثلاثة أشهر.

كما أنّ هيلين قد تذكّرت كيف ساعدتها تعاليم العالِم والفيلسوف إيمانويل سفيدبنوري في التخلُّص من شكوكها الخاصّة، وأنّها قد عملت على دَعم إيمانها إبّان ذلك الوقت العصيب حالِك الظلام:

«لقد واصلت دورة التعليم الجامعيّ، ووجدت أنّ التعليم الحقيقيّ يتمثل في

معرفة الجهل ومكافحته، وهذا هو المفهوم الأكيد. لقد شككت كثيراً في عددٍ من الأمور الدينيّة، وقد شكّل ذلك ضغطاً هائلاً على نفسي، وضمن تلك الشكوك التي كنت أفكّر فيها بعمق مسألة كلمة الربّ، والطريقة التي جاءت بها إلى ذلك العالم، وتساءلت مراراً وتكراراً عن «حقيقة» ذلك.

لقد شككت في تلك الحياة الدينيّة التي تمّ تقديمها لي في أثناء دراساتي بأنّها «معصومة من الخطأ»، وحينها كنت أفكّر مليّاً في مدى صِدق ذلك الأمر من عدمه.

لقد أنقذتني تلك القراءات والتعاليم السّمحة المنطقيّة من شرور الشك، وقد أبقت على ذلك الإيمان الذي كان يسكن قلبي تلقائيّاً مُذ كنت طفلة صغيرة. لا يمكنني إخباركم بمدى امتناني حقّاً لوقوع ذلك الكتاب الثمين القَيّم بين يديّ في ذلك الحين الذي كنت أحتاج فيه إليه بشدّة، والذي أشعرني، صدقاً، بمدى العُمق الإيماني، والتحقُّق من وجود الإله».

لقد عكفت في تلك الأثناء على تأمُّل كتابات العالِم والفيلسوف إيمانويل سفيدبنوري. كان من الواضح، بناءً على ما سبق، أنّ هيلين كانت قادرة على اعتناق ذلك النوع العقلانيّ المنطقيّ من الإيمان الذي لا يعرف الشكّ أو الرّيبة، وقد كتبت في ذلك الصدد تقول:

«في الواقع، أنا لا أريد ذلك السلام الذي يتعارض كُليّاً مع الفهم والمنطق، لكنّي أريد ذلك الفهم الذي بدوره يُضيء قلبي، ويُشعرني بالسلام والطمأنينة الدائمة».

لقد كان هذا هو نوع السلام الذي أحضرته تعاليم إيمانويل سفيدبنوري إلى عالم هيلين كيلر، وكان هذا أيضاً هو نوع السلام الذي أرادت هيلين كيلر نقله إلى الآخرين. لقد كانت هيلين تؤمن بأنّ الشعور بالسلام النفسيّ لا يمكن أن يتحقّق بتثقيف العقل وحده، وكذلك كانت ترى أنّ تطوّر العلوم والتكنولوجيا وحده لن يجلب ذلك الشعور، إذ لا بدّ من إخضاع الروح لعمليّة التطوّر عينها، حتّى يمكننا العثور على السلام الحقيقيّ الدائم. وبناءً على ذلك، دعت هيلين كيلر إلى ضرورة وجود نظام تعليميّ يتجاوز مجرّد زرع الوعي والذكاء لدى عقل المرء، لكنّها نادت بوجود نظام تعليميّ يقوم بتعليم الشفقة والتعاطف والتأمُّل. وقد كتبت هيلين في ذلك الشأن تقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«وكما أشار السيّد إيمانويل سفيدبنوري، فإنّه لن تفلح البشريّة أبداً ما لم تتعلّم الحبّ والتعاطف والشفقة في المدارس، شأنها شأن باقي العلوم، لأنّنا بتلك الحال أشبه بمن يقوم بتربية وحش مُفترِس أبتر، لا يتغذّى على النباتات والحشائش، لكنّه يبذل قصارى جهده لأجل تدمير العالم عبر قوّة التفكير الطائش. لقد اخترعنا المزيد والمزيد من الأسلحة التي قصدنا من ورائها قتل وتعذيب إخوتنا وأخواتنا في الحرب، كما أنّنا نعشق استغلال الحيوانات البائسة التي لا حول لها ولا قوّة، وتعذيبها، سواء من أجل الترفيه أم من أجل مواكبة نزوات وأهواء الموضة، كما أنّنا أيضاً نمتلك شغفاً واضحاً في فنّ تصيّد الأخطاء والفضائح الخارجة عن السيطرة، وغيرها من الشرور الأخرى التي تُعزى إلى الجهل البشريّ.

ويمكنني القول إنّ خلاصنا الإنسانيّ لن يتأتّى عبر التثقيف الذاتيّ وحده ما دام لم يكن مدعوماً بالأخلاق التي تُراعي حقوق الآخرين:

أرغب في القول مُجدّداً إنّ تلك المشكلات الدوليّة الخاصّة بزمننا الحالي، وتلك الحروب والمشاحنات بين الناس، وويلات الحرب المتصاعدة، تعود إلى تصوّرات ومفاهيم ذهنيّة، التي يمكن أن تتغيّر عن طريق اقتراح مفاهيم جديدة ومناقشتها، وعن طريق التدريب، وعن طريق مساعدة البشريّة بعضها بعضاً، من خلال مُشاركات ملموسة عدّة، فقد باتت شعوب العالم بأسره تعتمد على بعضها بعضاً بصورة كبيرة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بسبب الحرب، ومع الأسف، قد بات مثقّفو العصر الحالي أكثر جحوداً بالتطوّرات الاجتماعيّة والسياسيّة والروحيّة التي باتوا قادرين على رؤيتها والمُشارَكة فيها، في حين تظلّ جماعة أولئك الأشخاص المؤمنين، الذين يتحمّلون الصِعاب، ويكافحون بكلّ الطرائق، وهم شهود على تلك الحقيقة في المدارس والمحاكم وورش العمل والمكاتب والهيئات التشريعيّة، الذين هم أشبه برُسل لما يؤمنون به».

لقد كانت تلك الأسباب المُتعدّدة هي ما جعلت هيلين كيلر ترغب في نشر تلك الرسائل المُفعمة بالمحبّة والسلام، ومن ثمّ أيضاً جاء إيمانها بضرورة القيام بالدور الإصلاحيّ الاجتماعيّ، وقد آمنت أيضاً أنّ انعدام تلك الرؤية الروحيّة أسوأ بكثير من

لخسارة البصر! كذلك كانت ترى أنّه على الرّغم من كونها امرأة صمّاء إلّا أنّها كانت قادرة على الاستماع إلى موسيقا الربّ من دون الحاجة إلى أن تكون لديها حاسة سمع.

السّلام على الأرض

كانت هيلين كيلر تطمح إلى تحقيق السلام على تلك الأرض التي نعيش عليها، فكان أملها الوحيد أن ينتهي ذلك الخوف، وكذلك التّعصّب الأعمى والعنف في نهاية المطاف، وربّما يأتي حقاً ذلك اليوم الذي ينتهي فيه الجوع والقسوة والوحشيّة والعَوَز نهائياً كما كانت تحلم، وربّما يأتي ذلك اليوم الذي تتدفّق فيه حكمة الربّ وطاقاته إلى عقول أولئك البشر، ومن ثمّ ينتشر السلام فيما بينهم.

لقد كانت هيلين تؤكّد في كلّ كتاباتها على ضرورة محاربة الكراهية بقوّة الحبّ، وعلى ضرورة قهر الظلام بالنور، وعلى استبدال ذلك الجشع البشريّ الإنسانيّ إلى خدمة البشر في جميع أنحاء الأرض من دون تعصّب أو عنصريّة، فعندما يبزغ فجر ذلك اليوم، حينها فقط سيكتمل حلم هيلين كيلر بوجود حضارة جديدة. وقد كتبت هيلين في ذلك الصدد تقول:

«يمكننا تأمّل القدر بأكثر من طريقة، وفي إحدى وجهات النظر، فإنّه يتمّ دفعنا وإجبارنا على القيام بأفعالٍ ما من قِبل قوى لا تعرف المُقاومَة. ونحن، من ناحية أخرى، مهووسون بذلك الخوف الذي خلّفته الحرب، والجهل والفقر، لكن عندما أنظر إلى الساعة الحقيقيّة أدرك حينها أنّنا قد تحضّرنا منذ دقائق معدودة فقط، بحسب تعريفنا الخاصّ بالزمن، وبحسب التأمّل في كلّ ما يشغل العقول المُفكّرة اليوم، وأشعر أنّ في داخل كلّ منّا تلك الرغبة الأصليّة لإضاءة نجم السلام العالميّ».

الجزء الثاني

كيف في مقدوري مساعدة العالم؟

«أدفن أصابعي في ذلك النهر العظيم من الضوء، الذي هو أكثر ارتفاعاً من كلّ النجوم، وأعمق من ذلك الصمت الذي يحوم حولي في إصرارٍ لا يرحم.»

نهر الضوء العظيم

«مُذ كنت في السادسة عشرة من عمري، وقد أصبحت حينها أكثر إيماناً بالإله، وكان هذا من خلال قراءاتي المختلفة للتعاليم السّمحة التي نقلها الفيلسوف والعالم إيمانويل سفيدبنوري، والتي كانت تطلب إلى القُرّاء أن يستمعوا إلى صوتهم الداخليّ أوّلاً بدل الاستماع إلى آراء رجال الدّين والمُفَسّرين، وغيرها من المُناظرات والمُشاحنات التي تدور بينهم عبر الزمان.

وبعد أن درست الكتاب المُقَدّس لاحقاً، تمكّنت حقاً من فهم كتابات إيمانويل، ومعرفة حقيقة ذلك النور الذي تدفّق إلى عالمي المُظلِم. لقد ساعدني حقاً ذلك الفيلسوف والعالِم الدينيّ في بدء رحلتي الروحيّة الخاصّة، والإبحار في ملكوت ذلك العالم من دون حدود أو قيود إلى هذا الحدّ الذي جعلني أنسى أمر إعاقتي كُليّاً.

لقد حاولت مراراً وتكراراً أن أستدعي تفسير الفيلسوف والعالم سفيدنبوري لمعنى الدّين المسيحيّ، الذي كان يختلف كُليّاً وجذريّاً عن ذلك المفهوم الشائع الآخر الذي توارثه الآباء والأجداد، لكنّي لم أحصل حينها على أيّ إجابة مُرضية، ولقد تملكتني تلك الرغبة بشدّة تماماً كما تملّكت الكاتب جوزيف كونراد وحثّته الرغبة المُلِحّة في الذهاب إلى البحر يوماً.

مثله تماماً، لقد حاولت أن أقوم بتلك الوَثبة المُذهِلة - إن جاز التعبير - مُتَحَرّرةً من كلّ قيودي وارتباطاتي، وتلك العادات والتقاليد التي تحكمني، وألقيت بنفسي في هذا البحر العميق من الضوء والحكمة. وما حدث لاحقاً هو تشكيل تلك الصورة الفريدة التي نشأت لأكونها.

لقد اعتمدت تعاليم سفيدنبوري الدينيّة على السماحة وبساطة اللغة، على عكس تلك اللغة القديمة التي عفا عليها الزمن، والتي كان يستخدمها رجال الدين الذين سبقوه على مدار الزمان، وكذلك كان هناك تجديد واضح في فحوى خطابه الديني، ومن ثمّ استطعت التّعمُّق في قراءة كتاباته المتعدّدة.

لقد تركّزت أفكاره على ثلاث نقاط، وهي أنّ الإله هو الحُبّ المُطلَق، وهو أيضاً الحكمة المُطلَقة، وكذلك هو القوة المُطلَقة. وقد تحرّكت تلك الأفكار كما أمواج المحيط التي تتدفّق عند كلّ ميناء من موانئ الحياة بقوّة إرادة جديدة، وإيمان عميق، وإنجاز لا مثيل له. كذلك تتناغم تلك الأفكار مع مفهوم الإله والكلمة وعالمي الدنيا والآخرة اللذين آمنّا بوجودهما منذ قديم الأزل. لقد أعطانا ذلك الفكر الديني الجديد واقعيّة جديدة لفهم منطق الحياة والحكمة من وجودنا فيها، والذي اختلفت تفسيراته وتأويلاته عن العصور القديمة المُنصرِمَة، وكان أقرب إلى رؤية تنويريّة لذلك المفهوم المُحدّد.

إنّ الإنسان عندما يفكّر بطريقة تنويريّة حُرّة، فإنّه بذلك يتحرّر كُليّاً من تلك الأشياء التي تُقيّد روحه وتجعله مُكبّلاً في كلّ خطوة، وكذلك تنزاح تلك الغمامة عن عينيه فيتمكّن حينها من الرؤية بشكلٍ أوضح وأعمق وأشدّ تبصُّراً، ويُدرك حقيقة كلّ شيء حوله، ويمارس تأمُّلاته الخاصّة، ويصل حقاً إلى صورة دقيقة عن كلّ الأمور المُحيطة به، والتي شكّلت له لغزاً لعقودٍ طويلة.

يمكنني القول أيضاً إنّنا نعيش حالة من الإهمال في الجانب الروحي الإنساني، وهذا في حدّ ذاته أمر يُرثى له حقاً! فكيف يمكننا تجنُّب المسألة الروحيّة بهذه الطريقة؟ هل نعتقد حقاً أن يكفي المرء الاهتمام بجوانبه الإنسانيّة الأخرى للنهوض بنفسه من دون أن يكرّس اهتمامه لدراسة جانبه الروحي؟ أعتقد أنّ هذا الأمر خطأ، بكلّ تأكيد، فيتوجّب على الإنسان الاهتمام بذلك الجانب الروحي حتّى يستطيع أيضاً إيجاد تفسيرات روحيّة لتلك الحياة، جنباً إلى جنب مع تلك التفسيرات الفلسفيّة والعلميّة لها.

إنّ الكفيف الحقيقي هو الشخص غير القادر على رؤية الحقيقة، وهذا المفهوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشمل أولئك الذين أغلقوا عيونهم عن تلك الرؤية الروحيّة. إنّ الظلام بالنسبة إلى هؤلاء هو أمرٌ لا شكّ فيه.

فهؤلاء الذين يولدون وسط الظلام الدامس الذي لا يرحم ولا يختفي، في حين تجدهم يحاولون استكشاف ذلك العالم، وتحسّس الطريق، مُمسكين بشُعلة الروح وقنديلها، هؤلاء الأشخاص الكفيفون، تحظى غالبيتهم بصُحبة ذلك العالم الروحي لأنّهم محرومون كُليّاً من العالم الماديّ بتفاصيله المُختلفة، لذا تجدهم على الدوام يتلذّذون بمَعيّة ذلك الكيان الروحيّ الذي يسكنهم، ويحاولون عن طريقه فكّ شيفرات تلك الطلاسِم الماديّة المُحيطة بهم.

إنّ تلك النعمة التي يشعر بها المكفوفون تتمثّل في أنّ تلك المناظر الطبيعيّة الجميلة التي يرونها بعين القلب والخيال لا تختفي أبداً، وتلك الزهور اللامعة المتألقة على أغصان الأشجار لا تموت ولا تذبل أبداً، وتلك السموات التي يرونها داخلهم لا يلوّثها أيّ شيء. إنّهم يرون تلك الصور المثاليّة للأشياء، ولا يصدمهم قُبح الواقعيّة، لذا ستجدهم أكثر تعلّقاً بالجانب الروحيّ للأشياء.

ستجدهم يحاولون الاستماع إلى الجدران وتأوّهاتها في منتصف الليل، وستجدهم يصيخون السّمع إلى أشعار الصمت وقصائده المخمليّة التي لا ينتبه إليها أحد، وستجدهم قادرين وبجدارة على قراءة ما بين السطور، وستجدهم يهتدون شيئاً فشيئاً إلى فلسفتهم الخاصّة وتنويرهم الداخليّ لأنّ قنديل الروح الذي يسكنهم لا ينطفئ، ولا تخبو أنواره.

إنّ هذا الأمر وإدراكه والإحساس به، يجعل المرء منّا يتشبّع بالنور الحقيقيّ الذي يغسل الإنسان من الداخل، ومن ثَمّ فهذا يجعله قاطناً لمدن النور، هناك حيث تُشكّل الحكمة شمس ذلك الملكوت الخالد، هناك حيث نحتسي مياه المعرفة الخلوة، هناك حيث تنفتح عيون الروح، هناك حيث نرى الفرح ونُصافحه يداً بيد.

أعترف أنّني لم أستطع التحرّر من خوفي وقلقي إلّا بتلك العقليّة المختلفة الشجاعة في تكوينها. لقد انتصرت على ظلامي الدائم الذي كان أكثر مَن صادقته في حياتي بأسرها من خلال التفكير على هذا النحو، فلو كان الخوف والجهل قد نجحا

في تملُّكي لما كان في مقدوري أن أحقِّق أيّ إنجاز، وإذا لم أستطع تثقيف عقلي والسَّفر بالزمن إلى عوالِم أخرى لما كان باستطاعتي أن أكون بتلك الصورة التي أصبحت عليها اليوم.

لقد كان كلُّ شيء رَهين طريقة تفكيري تلك، وكانت تلك الطريقة السَّمحاء التنويريّة هي خلاصي الأكيد من فوضويّة وصخب العالم الخارجيّ المُزدحم، فلقد كانت أشبه بيَنبوع الحياة بالنسبة إليّ.

لقد دفنت أصابعي في ذلك النهر من الضوء، الذي كان أكثر ارتفاعاً من النجوم، وأشدّ عُمقاً من ذلك الصمت الذي يلفُّني، وحينها تحديداً أدركت مدى عظمة ذلك الكون الشاسِع المُمتدّ، الذي أُعدُّ، أنا، نقطة في بحره، ومن ثمّ أدركت مدى تفاهة الماديات، وأصبحت أكثر التصاقاً بذلك العالم الروحيّ المَنسي».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثالث

مفهومي عن الإله

هل أنا أكثر من مجرّد امرأة عمياء صمّاء؟ بالطبع لا! هذا على الأقلّ في اعتقاد الكثيرين، وعلى رأسهم نفسي، إبّان الفترات الزمنيّة الماضية عندما كنت أفكّر بنظرة مُتشائمة! لقد كنت أظنّ حينها حقاً أنّني غير قادرة على تصوّر أيّ شيء من حولي، ويدخل ضمن تلك الدائرة بالطبع عجزي عن تصوّر الإله أو وضع مفهوم مُحدّد لتلك الفكرة، لكنّني لاحقاً، وبعد أن تمكّنت من خوض رحلة استكشاف نفسي، وجدت أنّ ذلك المفهوم في حدّ ذاته ينبع من داخل المرء، فأنا غير قادرة البتّة على التوصّل إلى ذلك المفهوم الواسع العظيم النبيل من دون أن أعرف جيّداً مَن أنا؟ وما هي رسالتي على هذه الأرض؟ وما هو العالم؟ وهل العالم هو ما يراه الناس؟ في الواقع لقد جعلتني تلك التساؤلات الفلسفيّة أتمكّن من أن أسلك طريقاً آخرَ مكّنني من وضع المُسميات على تلك الأشياء والقضايا المُحيّرة، وتالياً، فقد استطعت أن أعرف مَن هو الإله؟ وكيف يمكنني أن أعرفه حقاً؟ لأنّني كنت أرفض الإصغاء إلى كلّ ما يقوله رجال الدين من عباراتٍ مُكرّرة عن الإله، وأردت أن أتعرّف ذلك بنفسي. وعلى الرّغم من إعاقتي السمعيّة والبصريّة إلّا أنّني رأيت أن لا علاقة لذلك الأمر المحدود في تعرّف الإله، لأنّني آمنت في تلك اللحظة بأنّ إجابة ذلك الأمر تأتي فقط من الداخل، وليس من العالم الخارجيّ المُحيط بنا، على النقيض، فهذا العالم يضمّ عدداً كبيراً من المُشتّتات التي لا يمكنها أن تساعدنا في تعرّف أنفسنا وإجابة ذلك السؤال الأبديّ: من أين جئنا؟ لكن، يمكنني القول إنّني عثرت على كلّ تلك الأجوبة عندما فتّشت عميقاً في ذاتي، وعندما أدركت أنّ إعاقتي لا تمثل شيئاً من شأنه أن يعوقني ويمنعني من تحقيق ما أتمنّاه، وأنّ وجودها ربّما لسببٍ أكبر منها، وبناءً على ذلك الفهم الواضح، وجدتني أتحرّر شيئاً فشيئاً، ووجدتني أجد تناغماً واتّساقاً واضحين مع تعاليم الفيلسوف وعالم اللاهوت سفيدنبوري، التي أعجبتني تفسيراتها السّمحة، والتي اختلفت كثيراً عن التعاليم الدينيّة في العصور التي سبقتها.

Telegram:@mbooks90

إنّ ذلك العالم الروحيّ الذي يسكننا جميعاً هو في حاجة إلى أن نقوم برعايته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاهتمام به كما لو كان طفلاً يحبو في داخلنا، فيتوجّب علينا، إذاً، الإنصات إلى صراخ ذلك الطفل وأنينه في بداية الرحلة حتّى نستطيع أن نتفهّمه، وأن نأخذ بيده إلى رحلة عالم النضج، ومن ثمّ نجد أنفسنا نصبح أكثر وعياً بتلك الأشياء الروحيّة، ويزيد فهمنا أكثر وأكثر، ونستطيع حينها إدراك ذلك العالم الذي قد يهمله كثير من البشر ولا يحاولون اكتشافه بعد حتّى لحظة موتهم!

إذ، هناك مَن يكتشف ذلك العالم الروحيّ في داخله، ويتدفّق معه كما التيّار، وهناك مَن لا يكتشفه ولا يعرف عنه شيئاً، لأنّه مشغول فقط بتأمّل الماديات، وتالياً، تجده يقع أسيراً لذلك العالم الماديّ الزائل.

إنّ المعنى السّمح للدّين، بصفة عامّة، هو ذلك المعنى الذي يسمح للمرء بفعل الخير من أجل نفسه أوّلاً، ومن أجل خدمة الآخرين أيضاً. كذلك، يتعيّن علينا تقدير قيمة الكلمة التي هي قادرة على تحريك كلّ شيء من حولنا بقوّة هائلة جبّارة.

إنّ مأساة رجال الدين والعلماء اللاهوتيين هي أنّهم ينصّبون أنفسهم أوصياء على الناس، ويقومون بذلك الدور بكلّ شخف وتشدّد وكأنّهم يطبّقون إرادة الإله على الأرض. لكن، هذا في حدّ ذاته أمر غير حقيقيّ، ويؤدّي إلى إساءة فهم المعرفة الدينيّة أو تلك المعلومات المهمّة في ذلك الجانب، ويرجع هذا إلى ذلك الدور الفظّ الذي يمارسه رجال الدّين في ذلك الصّدد، لأنّهم يحاولون أخذ اعترافات البشر بآثامهم وأخطائهم عنوة. إنّ هؤلاء الناس يحاولون لعب دور الإله على الأرض، وهذا أمر غير منطقيّ وغير مقبول على الإطلاق، ومن ثمّ كان لا بدّ من أن يتغيّر الخطاب الدينيّ شيئاً فشيئاً حتّى كانت تعاليم الفيلسوف الدينيّ سفيدنبوري السّمحة، التي حاول من خلالها تقديم تفسيرات عقلانيّة بعض الشيء لما ورد في الكتاب المقدّس، وكذلك حاول أن يقدّم تلك الشروحات بشكلٍ مُبسّط للغاية للجميع، وكذلك راعى عامل المنطقيّة خلال مناقشاته تلك من خلال كتبه وأعماله المتعدّدة، وقد حاول أن يقوم بهذا الدور الجليل من خلالها. لقد تمكّن سفيدنبوري حقاً من تفسير الكتاب المقدّس بالطريقة عينها التي تمكّن فيها يوسف من تفسير حلم حاكم مصر فرعون.

اتّسمت لغته بالبساطة والرشاقة، وحاول إخبارنا بما تعنيه عذابات الجنّة والنار،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك صوّر لنا الإله الأعظم، الذي لا يُشبهه شيء، بأنّه صاحب ذلك الكون الهائل، وقدّم لنا كلّ ما نحتاج إليه من خلال كتبه.

إنّني أرى أنّ فكرة الدّين يجب أن تقوم في أساسها على فكرة منطقيّة يقبلها العقل ويحترمها، ومن ثمّ يأتي تقديرها واتّباع نهجها السليم، فإنّ مفهوم الإله الأعظم، مثلاً، هو كما قال الفيلسوف سفيدنبوري، هو الحكمة المُطلقة، والحُبّ المُطلَق، والقوّة الهائلة. إنّ الإله هو كلّ تلك الروعة والجمال والكمال، ولا ينبغي أبداً أن يقوم أحد رجال الدّين بالتقليل من عظمة تلك الفكرة عن طريق تصدير مجموعة من المفاهيم المغلوطة والأفكار الساذجة الخطأ للآخرين.

عبر التاريخ، يسكب الإله العظيم نوره على العقل البشريّ والطبيعة الخلّابة التي تُزيّن الكون كلّه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الرابع

كتاب التفاؤل

في الواقع، دائماً ما أتساءل إن كانت تلك البيئة المُحيطة بنا كبَشر لها تأثير في سلوكاتنا المُباشرة؟ وكذلك، دائماً ما أطرح ذلك السؤال على نفسي إن كانت مهامنا والتزاماتنا مُرادِفةً لهباتنا وثرواتنا؟ ولَمَّا فكّرت مَلياً في تلك الأمور، أمكنني التوصُّل إلى حقيقة أنّه في مقدور جميع البشر أن يكونوا أشخاصاً مُتفائلين! ومما لا شكّ فيه أنّ معظمنا ينظر إلى السعادة بحسبانها الغاية الصحيحة، والنهاية المَنشودة من كلّ تلك المسائل الدنيويّة.

إنّ مسألة الرغبة في السعادة تتحرّك في داخلنا كما طريقة الفلاسفة، وكذلك وفق طريقة الحكايات الأسطوريّة القديمة التي تشتمل على المزيد من المُعجزاتِ والغرائب، فمهما كانت حكمة أو عقلانيّة أو منطقيّة أحدنا، فجميعنا ننظر إلى السعادة على أنّها حقٌّ لا يَقبَل النزاع أو الجدال. ومن الغريب حقاً اكتشاف مدى اختلاف أنماط وأهداف السعادة التي يسعى الناس إلى تحقيقها على الدوام، ومن خلال سلك طرق مُختلفة ومُنفرِدة للحصول على تلك الحياة السحريّة التي يرغبون فيها، فالكثير من الناس يجد سعادته في جمع الثروات، وهناك مَن يجدها في قوّة السلطة، وهناك مَن يجدها في إسهامات الآدابِ والفنون، وهناك عدد قليل ممّن يجد لذّته وسعادته الخاصّة في استكشاف عقله، وكذلك في بحثه الخاصّ عن الفَهم والمعرفة.

إنّ معظم الناس يقيسون سعادتهم بكمّ مُتعتهم الجسديّة وحيازاتهم الماديّة، فإذا تمكّن أحد منهم من الحصول على هدف ماديّ ملموس ومرئيّ، أحسّ بسعادة هائلة لا يمكن وصفها! في حين تجدهم بائسين حقاً إذا ما افتقروا إلى تلك الموهبة، أو إذا لم تخدمهم الظروف في الحصول على ذلك الغرض الماديّ.

وإذا كان حقاً من الممكن قياس السعادة، فإنّه يتعيّن عليّ أنا، بحسباني تلك المرأة التي لا يمكنها أن ترى أو تسمع، أن أتكوّم في إحدى الزوايا وأبكي من دون انقطاع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن، دعوني أعترف لكم الآن أنّ المسألة لا تُحسَم على هذا النحو، وذلك لأنّه على الرّغم من أنّي أعاني من كلّ أشكالِ الحرمان، إلّا أنّني أحيا السعادة كلّياً، حتّى باتت أقرب إلى إيمان عميق يُغلّف روحي، حتّى باتت تلك السعادة أقرب إلى فكرة أبديّة أو إلى فلسفة حياة، ومن ثَمّ يمكنني القول إنّني ذلك الشخص الذي يستحقُّ أن يستمع الجميع إلى تجربته الخاصّة في ذلك الصّدد، وكيفيّة اعتناقه عقيدة التفاؤل.

ولأنّني تلك المرأة التي عرفت جيداً عُمق ذلك اليأس، وكيف جاء وتسلّل إلى نفسي في يوم من الأيام، وكيف أيضاً حاصرني الظلام الدّامِس الذي لا يرحم، إلّا أنّه لاحقاً قد احتلّ الحبُّ روحي، وسَكّن قلبي، وقد حرّرني بدوره نهائياً من تلك الأغلالِ والقيود كافّة، وعلى الرّغم من أنّني لم أكن أعرف حينها سوى اليأس والألم، فها أنا ذي أعرف الآن معنى السعادة والفرح.

أجل، أعترف أنّني تلك المرأة التي أصابها الغضب والسخط يوماً! أجل، أنا تلك المرأة التي ضربت رأسها في الحائط، وأغلقت تفكيرها في يأس! وها أنا ذي أصبح امرأة جديدة تنتشي في سعادة وتبتهج، إذ في مقدورها أن تفكّر وتقرّر وتتصرّف على نحوٍ سليم منطقيّ واعٍ! ها أنا ذي قد أصبحت ذلك الإنسان القادر على اختراق تلك القيود، والسّفر بعقلي عبر الزمن وعبر السموات الرّحبة الواسعة! فالشخص المتفائل هو شخص لا ينظر إلى الماضي، وكذلك لا ينظر إلى المستقبل، الشخص المتفائل هو ذلك الشخص الذي لا يموت! في حين يموت الشخص المتشائم مرّاتٍ عدّة، لأنّه لا يتوقّف عن الاشتياق إلى حدوث أشياء معيّنة لا تحدث، ويقتله الحنين إلى أمور أخرى، وهذا كلّه لا يفيد على الإطلاق، فلا يوجد أفضل وأروع من أن يعيش الشخص لحظته الحاليّة بكلّ امتنان.

لقد تمكّنت من أن أتحوّل جذرياً وكلّياً من تلك المرأة المتشائمة إلى أخرى مُتفائلة، وذلك لأنّني هربت من سِجن ذلك الليل الطويل، وتحرّرت، وتمكّنت من التحليق بعيداً حيث شمس الحريّة، ومن ثمّ انتقلت من مرحلة التشاؤم إلى مرحلة التفاؤل.

لقد كانت تجربتي تلك أشبه بقفزة حقيقيّة ملموسة من عالم سيّئ إلى عالم جيّد، ولأكون صادقة، فأنا لم أتمكّن من إنجاز تلك القفزة بين عشيّة وضُحاها، لكنّي تمكّنت

من القيام بخطوات صغيرة بطيئة عدّة في أوّل المطاف حتّى تمكّنت في النهاية من إنجاز تلك القفزة على نحو مُذهِل، وانتقلت من عالم الظلام إلى عالم النورا

لقد تعلّمت شيئاً فشيئاً كيف أعيش؟ لقد تعلّمت أن أستخدم ذكائي جيّداً في الفهم والاستيعاب والإدراك، وتعلّمت كيف أفكّر، وكيف أرى العالم؟ لم يعد في مقدور الظلام إغلاق عقلي مرّةً أخرى، فلقد تمكّنت أخيراً من العبور إلى جهة الشاطئ، وهناك تحديداً شهدت بزوغ فجر الأمل.

يمكنني القول أيضاً أنّ تفاؤلي هذا قائم على المنطق وليس وَليد العبث والفوضى العقليّة أو الهذيان، ولقد قال أحد الشعراء يوماً ما:

«يتوجّب عليّ أن أشعر بالسعادة، لأنّني لا أنظر إلى ذلك الحاضر القاسي المُجرّد، لكنّني أعيش حلماً بديعاً».

أنا أيضاً حالي تماماً كحال ذلك الشاعر، فأنا أحيا حلماً جميلاً بديعاً مُحاطاً بالبركات، وأشعر تجاهه بالامتنان الشديد. إنّني مثله تماماً، لا أعيش ذلك الحاضر البارد القاسي المُجرّد، لكنّ تفاصيله البسيطة تُدفئني وتشعرني بالفرح. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّني أؤمن تمام الإيمان أيضاً بأنّ من الضروريّ أن يمرّ المرء بتلك المرحلة القاسية الباردة التي قد تكون بمنزلة الظلام الشديد الذي لا ينتهي، فهذا في حدّ ذاته أمر ضروريّ ومهمّ من أجل أن يصل الإنسان إلى تلك الحكمة الحقيقيّة الداخليّة، التي هي السبب الرئيس في غمره بالسعادة فعلاً.

إنّ من الخطأ دائماً أن نتجاهل الصّعاب والعراقيل في حياتنا، لأنّ ذلك التجاهل في حدّ ذاته هو الذي يدفع بنا إلى الهاوية، ويجعلنا غير قادرين على تصحيح تلك الأخطاء الملموسة الواضحة مما ينتج عنه، في نهاية الأمر، وقوع الكوارث. فمن الخطأ بالطبع أن يتجاهل المتفائل مشكلاته أو مشكلات عصره، فمثلاً، ممّا لا شكّ فيه أنّ القرن العشرين كان القرن الذي شهد أكثر العقول المُفكّرة غزارة ومُساهَمة في تطوّرات البشريّة وإبداعاتها وفلسفتها وعلومها واختراعاتها، لكن ربّما ما كان لكلّ هذا أن يحدث مثلاً من دون أن يحاول هؤلاء المفكّرون العظماء بذل قصارى جهودهم من أجل حلّ مشكلات عصرهم وآفاته، وكان على رأس مشكلات ذلك العصر، حينئذ،

مشكلة العبيد وقضيّتهم الأشهر، ولولا ما قام به المفكّرون في هذا الصدد لَما أمكن تجاوز تلك القضيّة أبداً. ومن هنا، يمكننا أن نجهر بالقول إنّ سيكولوجيّة التفاؤل لا تتجاهل المشكلات والأزمات وعدم الاعتراف بها، لأنّه إذا ما اتّبعنا تلك الطريقة فلن نتمكّن أبداً من التجاوز والعبور إلى الجانب الآخر من الشاطئ.

لم يكن في مقدور هؤلاء المفكّرين العظماء قهر أزمة «العبيد»، سالفة الذكر، لو لم يعمدوا إلى مناقشتها بكلّ صدق وحياديّة، ولو لم يدافعوا عن أولئك الرفاق، شركاء الوطن الآخرين، الذين يجري بيعهم كما القطيع! لم يكن بإمكانهم تبنّي المنظور المتفائل الساذج الذي يقول:

«أوه! يا إلهي! إنّنا حقاً أمّة عظيمة، بل إنّنا أهمّ وأعظم شعوب الأرض.»

لو كان المفكّرون قد صدّقوا ذلك الأمر لَما تمكّنوا حقاً من تحسين المجتمع وأوضاعه. إنّ مصارعة تلك الأزمات والمشكلات في الأصعدة كافّة هو الحلّ الأمثل لجعلنا قادرين حقاً على تجاوزها بشكلٍ ملموس وواقعيّ، فإن لم أتمكّن، أنا شخصيّاً، من حلّ مشكلاتي الخاصّة، والتحدّث إلى نفسي، وقهر كلّ تلك القيود والأغلال، فلن أتمكّن أبداً من أن أصبح بتلك الصورة التي أنا عليها اليوم. فالتفاؤل ليس منطقاً عبثياً ساذجاً يمكن للمرء اتّباعه في حياته، لكنّه نهج يساعده في تجاوز آلامه وأزماته، وكذلك الحال مع المجتمعات.

في آخر أيامي الجامعيّة كنت أتطلّع شوقاً إلى معرفة ما يحمله المستقبل من أجلي في الغدِ القريب، وعلى الرّغم من أنّي أعرف جيّداً حقيقة إعاقتي السمعيّة والبصريّة، وأنّه بناءً على ذلك فإنّ مشاركتي ستكون محدودة جداً من هذا المنطلَق، إلّا أنّني قدّرت بشدّة فكرة العمل نفسها والمشاركة، وكانت تلك الفكرة في حدّ ذاتها جالبة للتفاؤل بالنسبة إليّ.

أدركت لاحقاً أنّ في مقدوري أن أعمل بكلّ طاقتي، وأيقنت أنّي أوشك أن أشارك بكامل جهدي من أجل إنجاز شيء نافع، من أجل خدمة المجتمعات كافّة، على الرّغم من إعاقتي. لقد جعلني هذا الأمر أفكّر على نحوٍ مختلف جذريّاً، ولقد عكفت على قراءة ذاتي على نحوٍ غير مسبوق، وحاولت أن أبحث في تلك الطرائق التي تمكّنني

من أن أقدّم المساعدة عن طريقها. على الرّغم من إعاقتي، وعلى الرّغم من قلّة تلك الطرائق، إلّا أنّني حاولت حقاً أن أنقل خُلاصة تجربتي إلى الناس حول العالم، وأن أمدّ يَد المُساعدة للجميع، سواء من أصحاب الإعاقة أم غيرهم. لقد حرصت على أن أفتح قلبي كُلّياً للعالم وللحياة، ومن ثَمّ فقد أصبحت لاحقاً أسعد امرأة عامِلَة في العالم، على الرّغم من الإعاقة!

لقد تبنيت تلك الفلسفة التي تأسّست على النور والقوة والإشراق الروحيّ الحقيقيّ، وحاولت أن أنطلق لأقوم بكلّ شيء يمكنني فعله، وقد تشرّبت روحي السعادة بمعناها الصادِق غير المُفتَعَل، وكنت أعدُّ نفسي للقيام بمهمّة عظيمة مُلهِمَة.

لقد تجسّدت سعادتي الحقيقيّة في القيام بتلك المهام التي أعدّها بسيطة ومتواضعة، وحرصت على إنجازها جميعاً بكلّ حُبّ وإخلاص. لقد أخبرنا عدد من المؤرّخين العظماء عبر التاريخ الطويل أنّ الكلمة هي التي ترشدنا عبر العصور، وهي التي تمكّننا من بلوغ غايات هائلة، وهي التي تعدُّ مصدر إلهام لكلّ القادمين من بعدنا. لقد صنع الأبطال ملايين الكلمات التي ساعدتنا في إدراك مهامنا واكتشاف كنوزنا الخاصّة، وإدراك الحكمة وتتبعها.

لقد وضعت ثقتي الكاملة في نفسي، ومن ثَمّ مكّنتني تلك الثقة التي أساسها الإيمان أن أصِل إلى ذلك المعنى المنشود من منهج التفاؤل. لقد ساعدني التفاؤل في الوصول إلى ذلك الخليط الذي تمتزج فيه الطبيعة بالحكمة ومعنى الإله العظيم والقوة الخفيّة للإنسان، ولقد دفعني كلُّ هذا السّحر الداخليّ إلى بلوغ كلّ آمالي التي كنت أظنُّ يوماً أن ليس في مقدوري تحقيقها. فالتفاؤل، إذاً، هو حقيقة كامنة داخل قلبي، وكلّما اختبرت المزيد من تجارب الحياة العديدة، وجدت أن ليس ثمّة تضارب أو تعارض بين ما يحمله قلبي وحقيقة الحياة. لقد أدركت أنّه ليس ثمّة تعارض بين فلسفة الحياة وفلسفة التفاؤل، أي أنّ ذلك العالم الظاهريّ الخارجيّ يُسوّغ كوني الداخليّ ويجعله يبدو منطقياً، فطيلة سنوات دراستي الجامعيّة، وقراءاتي الخاصّة المختلفة، تأكّد لي ذلك الأمر بالدليل والبرهان.

لقد تمكّنت حقاً من إعادة استكشاف نفسي، واستطعت من خلال قراءاتي في

الأدب والفلسفة والدين والتاريخ أن أصل إلى ذاتي الحقيقيّة، وأن أدرك طبيعة كلّ الأشياء من حولي، بما في ذلك طبيعة أزمات ومشكلات الحياة وعراقيلها.

لقد مكّنتني الفلسفة من قراءة تاريخ المكفوفين الصُمّ، ومكّنتني أيضاً من قراءة كلّ تلك المحادثات الفلسفيّة المهمّة، بدءاً من سقراط إلى أفلاطون، وكذلك بيركيلي وكانط، فالفلسفة هي تسجيل ملموس لكلّ إنجازات الذكاء البشريّ التي ساعدت الإنسان في التخلّص من ذلك العالم الماديّ، والتحليق بعيداً إلى حيث ذلك الكون الذي تسكنه الأفكار النقيّة الخالصة، فتلك الأشياء التي تراها وتسمعها وتلمسها ليست حقيقة الأشياء وإنّما هي تجلّيات الفكرة! أجل، تجلّيات الفكرة والروح، فالفكرة هي الحقيقة، وما عداها هو الوهم المُطلَق.

يمكنني القول أيضاً، إنّه إذا افترضنا أنّ الحقيقة لا تُدرَك إلّا بالحواس فهذا معناه أنّه يتعذّر عليّ إدراك تلك الحقيقة لأنّني امرأة كفيفة لديها إعاقة سمعيّة! لكن هذا الأمر ليس صحيحاً، لأنّني تمكّنت من إدراك الحقيقة ولَمسها، بل ومُصافحتها يداً بيدٍ على الرّغم من أنّي محرومة من نعمتَي البصر والسّمع، فأنا لست مُختلفة عنك، فكلانا يصل إلى الحقيقة، وهذا لأنّ الحواس ما هي إلّا مجرّد وهم، لكنّنا نصل إلى الحقيقة بأرواحنا وقلوبنا.

لقد تعلّمت من فلسفة بيركيلي أنّ العيون التي نملكها ما هي إلّا صورة مقلوبة لتلك الأشياء التي يقوم العقل بتصحيحها من دون وعي. لقد جعلني ذلك أشكّ في أنّ العين ليست أداةً موثوقاً بها بشدّة، وبدأت أتفهّم حينها أنّ هذا كلّه قد جعلنا أشخاصاً متساوين في كلّ ما نملكه من حواس وقدرات.

لقد آمنت حقاً أنّ خلق نوع من المزج بين الروح والعقل هو أقرب إلى تعرُّف عالم الربّ الداخليّ واكتشافه، وخلال تلك الرحلة كنت أظنّ أنّ الفلسفة قد كُتِبت خصيصاً لأجلي، لمواساتي، وفي الحين نفسه، كان الفلاسفة المُعاصرون يتعاملون معي كأنّي حالة تجريبيّة لتعاليمهم الخاصّة.

لم يكن مفهوم الفلسفة بالنسبة إليّ قاصراً على مبادئها الخاصّة المُحدّدة، لكنّه يخصّ شروح قضيّة العُزلة السعيدة الهانئة، فلقد تابعت تلك الفلسفات والرؤى

الخاصّة بأفلاطون وليبيتز، إذ كانت الفلسفة تدرس الاضطرابات كافّة، والتّشتّت والتنوّعات المُحيّرة، وهي ذلك العلم الذي يُحاول أن يتجاوز تلك الحدود الأرضيّة ليصل إلى حكمة الربّ الواسعة، ويبذل الفلاسفة قصارى جهدهم من أجل مدّ يد العون إلى أولئك المكفوفين من الصُمّ للالتقاء بذلك النور الهائل الخفي بعيداً عن الظلام الذي يسكنونه ويسكنهم منذ فترة زمنيّة طويلة.

إنّي أتفهّم حقاً كيف استطاع الفيلسوف باروخ سبينوزا أن يصل إلى مفهوم السعادة العميق على الرّغم من أنّه كان فقيراً مُعدماً، وكذلك على الرّغم من أنّه طُرد من الكنيسة، وتعرّض للاحتقار والازدراء من قِبل اليهود والمسيحيين، وعلى الرّغم من كلّ ما حدث له فأنا حقاً أتفهّم مدى عُمق وصِدق سعادته تلك، لأنّي مثله قد عشت ذلك النوع من العُزلة عن العالم المُحيط لاكتشاف نفسي، ولمحاولة تلمّس الحقيقة وإدراكها بنفسي، فأنا أشترك مع سبينوزا في ذلك الأمر، على الرّغم من أنّي لم أتعرّض لكلّ ما تعرّض له من العالم الذي أعيش فيه.

لقد آمن الفيلسوف سبينوزا في أعماقِ نفسه بمسألة فعل الخير وخدمة المجتمع بأيّ طريقة من الطرائق، سواء أمكنه القيام بذلك من دون عقبات أم حتى إذا واجهه المزيد من العراقيل والعقبات والقيود. لقد أصرّ سبينوزا على تحقيق ما يطمح إليه، شأنه شأن الرجال العُظماء كافّة. وبالفعل، لقد بذل قصارى جهده لتحقيق هذا الأمر مهما كلّفه الثمن.

إنّ التفاؤل في اعتقادي هو وليد تلك اللحظة الداخليّة، وهو ذلك الشعور الذي ينبعث قادماً من مملكة الربّ، وهو ذلك الشعور الفذ الذي يُضيء قلوبنا بغتةً، ويجعلنا ندرك أنّ هناك دوراً يتحتّم علينا القيام به، ونشعر حينها أيضاً وكأنّ أحدهم يهمس في أذننا ويخبرنا أنّنا سننتصر في نهاية الطريق، وأنّ كلّ ما ننشده هو أمر يسير سهل المنال. أعتقد أنّ ذلك السرّ الخفيّ هو سرّ من أسرار المنهج التفاؤلي.

لقد تعلّمت من خلال قراءاتي الفلسفيّة أنّ كلّ ما نراه ما هو إلّا ظِلال، وأنّ كلّ ما نظنّ أنّها حقائق كاملة ما هي إلّا قشور بسيطة من شيء أكبر وأعمق وأكثر غموضاً، ولقد علّمتني الفلسفة أيضاً أنّه عند تأمّل الصمت، يمكن للمرء العثور على صوته

الخاص، بصمته الفريدة التي لا تُشبه أحداً غيره.

ولقد ازداد يقيني مع مرور الوقت، وكذلك ثقتي، وكلّ هذا ساعدني في التخلّص من كلّ تلك الشكوك الطيفيّة.

يمكنني القول أيضاً إنّ أهمّ وكبار الفلاسفة قد تمكّنوا من خلق علاقة فريدة مع الإله الأعظم، واستطاعوا أن يتوصّلوا إلى هذا القدر من الحكمة والمعرفة عن طريق إصغائهم الكامل إلى الصمت، وقد تيقّنوا أيضاً من أصواتهم الداخليّة، ووصلوا إلى أعلى درجة من درجات السلام النفسيّ والروحيّ.

وقد أكّدت لي قراءاتي أيضاً أنّ معظم هؤلاء الفلاسفة الذين أفضّلهم عن غيرهم من الفلاسفة كانوا ممّن يتبعون منهج التفاؤل في التفكير.

يعدُّ نموّ الفلسفة تطوّراً واضحاً لقصّة حياة الإنسان الروحيّة، في حين تكمن في الخارج تلك الأحداث الهائلة التي نطلق عليها اسم «التاريخ»، ذلك الذي يأخذ هيئة مُحدّدة، ويتشكّل لاحقاً، ويتّسم بسماتٍ مُحدّدة.

إنّ تاريخ الإنسان هو ملحمة من ملاحم التقدّم المُذهلة، فخلال تأمّل المراحل التاريخيّة للبشر يمكنني أن أرى تشابهاً وتماثُلاً واضحين، وكذلك أيضاً أرى رمزيّة مجيدة تكشف عن الجوانب البشريّة والإلهيّة.

إنّ تلك الدروس المُستفادة من علم الفلسفة تتردّد في الواقع، ففي كلّ جوانب التاريخ تجد أنّ الروح تختبئ في مكانٍ ما، وعند تأمُّل المشهد كاملاً يمكنك فهم المعنى.

يمكنني القول أيضاً، إنّه إذا أمكننا تأمُّل تاريخنا البشريّ منذ بدايته، فحينها نجد قدراً هائلاً من الوحشيّة والهمجيّة والبربريّة، التي شيئاً فشيئاً اختفت تدريجياً، وحلّ محلّها التحضُّر والحياة المجتمعيّة والعلميّة والفلسفيّة والإبداعيّة. لقد تغيّرت نظرة الإنسان كلّياً إلى الأمور، ففي بداية المطاف كان يتصرّف على نحو فوضويّ بربريّ، لكن الآن، وقع المزيد من التغيُّر والتطوّر على الأصعدة الإنسانيّة كافّة، التي يمكننا قراءتها من التاريخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد كان الإنسان مثلاً في بداية التاريخ يعبد تلك الأصنام مُتجهّمة الوجه، لكنّ التغيّر الإنساني والتقدّم الذي شهدته البشريّة جعلاه يُدرِك أنّ ذلك كان تجسيداً واضحاً لصور الجهل.

كذلك بعد أن كان المرء منّا ينام في العراء وسط الغابات، تعلّم الإنسان لاحقاً وتدريجياً أن يبني سقفاً حتّى يحمي بيته وأسرته من تلك الشرور القادمة من الخارج، ومن خلال تلك المُعاناة البشريّة أيضاً تعلّم الإنسان أن يبني مكاناً للعبادة، هناك حيث يمكنه التحدّث إلى إله الكون، ويتضرّع بالدعاء، ويتحدّث إليه. وبسبب تلك المعاناة أيضاً، تعلّم الإنسان العدالة، ومن خلال المعاناة أيضاً وتعامله مع أقرانه، تعلّم الإنسان أن يُميّز بين الصواب والخطأ، ذلك الأمر الذي مكّنه بعد ذلك من اكتشاف ما يُسمّى بالأخلاق. وبعد ذلك، أُقيمت الإمبراطوريّات العظيمة الهائلة، ثمّ سقطت أيضاً، وبعدها ظهرت دول جديدة أكثر حداثة وعصريّة، لكن انتقلت بعض الموروثات القديمة مع تلك الحضارات، ومنها العبوديّة، تلك القضيّة، مثلاً، التي حاول مفكّرو العصر الحديث في مُحاربتها والتخلّص منها كُليّاً، لأنّها كانت تُمثّل صوراً للعصر القديم الغابر الذي اتّسم بالوحشيّة والبدائيّة.

إنّنا إذا ما قارنّا ماضينا الإنساني بحاضرنا، فسنجد أنّنا قد اكتسبنا مع مرور الزمن ذلك «التفاؤل»، الذي بات يمثّل قاعدة رصينة في حياتنا اليوم، ولم يكن له وجود ملموس في الماضي، لأنّ طريقتنا الحياتيّة، ونمط حياتنا، لم تكن لتسمح بوجود تلك الطريقة من التفكير، بأيّ شكلٍ من الأشكال. كما تقول الإحصاءات أيضاً بأنّه إبّان السنوات الماضية قد انخفضت معدّلات الجرائم على نحوٍ ملحوظ، وهذا في حدّ ذاته يعدّ مؤشّراً على التطورات التي طرأت على البشر، وجعلتهم أكثر تحضّراً وإنسانيّة، وهذا يكشف أيضاً أنّ الضمير العامّ بات أكثر وعياً.

أرى أيضاً أنّنا الآن أصبحنا نهتمّ أكثر بالنشاطات والأعمال الخيريّة في هذا الزمن، ولم يكن هذا الأمر موجوداً في الأزمان القديمة الغابرة، فنحن الآن يحاول معظمنا بذل الجهود من أجل مساعدة الآخرين إذا ما أصابهم أيّ مكروه، أمّا في قديم الأزل، فكانت الأوبئة تقضي على بلدان بأسرها من دون أن يتمكّن أيّ شخص من أن يقدّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للآخر يد المساعدة، أو أن يقوم بإرسال المعونات بشتى الطرائق.

لقد اختلف حاضرنا عن ماضينا تماماً، حقاً، فنحن الآن أصبحنا أكثر بحثاً عن قيم الحريّة والعدالة والمساواة، وأصبح هدفنا الأصيل هو البحث عن السعادة. ربّما يرجع ذلك إلى اختلاف تلك الطريقة التي يفكّر بها الإنسان خلال منهجه الخاص.

لم تقتصر جهود الإنسان في الحضارة الحديثة على بحثه وسعيه الدائم إلى تحقيق تلك القيم وحدها، بل شمل هذا أيضاً بحث الإنسان عن مسألة التعليم، وسعيه الدؤوب إلى أن يحصل الجميع على هذا الحق، حتّى استطاع الجميع بالفعل أن يحصلوا على ذلك الحق، فلم يعد الأمر مقتصراً على أشخاص مُحدّدين للتعليم والذهاب إلى المدارس، بل صار التعليم مطلباً جماهيرياً للجميع، وبات الأطفال الفقراء يذهبون إلى المدارس تماماً كما الأطفال الأغنياء، فلقد تمّ بناء المدارس في كلّ المدن والقرى، في أنحاء العالم كافّة، ووضع إنسان العصر الحديث هدفه الأساسيّ من أجل القضاء على الأميّة.

لقد اتّسعت المدارس لتشمل عدداً هائلاً من الطلّاب، ولم يعد الأمر مقتصراً على تعلّم موادّ معيّنة، إذ بات الطلّاب يتعلّمون الرياضيّات والعلوم والفلسفة والآداب والشّعر واللغات وغيرها، فكان لا بدّ أن ينفتح عقل المرء على كلّ أنواع الفنون والعلوم، وكان لا بدّ أن يتمكّن العقل لاحقاً من الإجابة عن تلك التساؤلات كلّها، التي شكّلت مُعضلة رئيسة لسنواتٍ عدّة طويلة، وكان لا بدّ أن يأخذ العقل بيدِ الروح، ويذهبان معاً في رحلة أساسها الفكر والمنطق حتّى يتمكّن الواحد منّا من معرفة دوره الحقيقيّ على هذه الأرض، وحتّى نستطيع أن نفهم ذواتنا بعُمق. ومَن يمكنه أن يُشكّك في آليّات التعليم وفاعليتها المدهشة، حتّى بات بإمكان أصحاب الإعاقة البصريّة والسمعيّة أيضاً اكتساب المعرفة والقراءة في مختلف المجالات، حتّى عن طبيعة أمراضهم تلك، لأنّه من دون التعليم كيف بإمكان الإنسان منّا التغلّب على عقباته وتجاوزها على نحوٍ حقيقيّ وفعّال؟

فنحن - المكفوفين - إذا لم يتح لنا ذلك التطوّر الهائل في مجال التعليم أن نكتشف العالم من حولنا، وأن نقرأ في المجالات والميادين كافّة، ومنها الفلسفة على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سبيل المثال، فكيف كان من الممكن أن نعرف ما هو العالم؟ كيف كنّا سنتعرّف إلى الآخرين؟ والأهمّ، كيف كنّا سنتعرّف أنفسَنا بحريّة واستقلاليّة من دون أن يُملي علينا أحد آراءه وانطباعاته؟ كيف كنّا سنصل إلى حقائق الأمور؟ وكيف كنّا كذوي إعاقة سنتعرّف طبيعتها كما هي على أرض الواقع؟ كيف كان سيتحقّق أمر كهذا إذا لم يزوّدنا التعليم بتلك الخاصيّة المُميّزة على القراءة بالأحرفِ البارزة؟ كيف كان لي، أنا شخصياً، أن أكتب أو أن أفكّر؟ كيف كان لي أن أتخيّل؟

في الواقع، لقد تعلّمت من خلال قراءاتي المُستمِرّة في التاريخ أن أتفهّم حقاً ما تعنيه الأحداث التاريخيّة التي تضمّنت بعض الحروب والمناوشات والعنصريّة ضدّ بعض الأقليّات على مرّ التاريخ الإنسانيّ. لقد تعلّمت حقاً بعد فترة طويلة من الوقت كيف أُحلّل نظريّات الفلسفة تحليلاً دقيقاً، وكذلك عرفت كيف أقرأ مشاهد التاريخ بقدرٍ من الوعي.

لقد علّمني منطق التفاؤل هذا ألّا آخذ الأشياء على عِلّاتها، وأن أتساءل دوماً لماذا حدث ذلك الأمر؟ وماذا لو لم يحدث؟ وماذا لو لم يكن حقيقياً أو أن يكون محض أسطورة توارثها البشر عبر الزمان؟

لَمّا بدأت أطرح تلك الأسئلة على نفسي تعلّمت جيّداً أن أفكّر على نحوٍ إيجابيّ، وعرفت معنى أن أفكّر أنا نفسي، لا أن يفكّر الآخرون نيابةً عنّي! لقد فهمت معنى أن أقرّر أنا نفسي، لا أن يُقرّر الآخرون نيابةً عنّي! الأمر بإيجاز، إنّ منطق التفاؤل هذا ينبعث من السلام النفسيّ الداخليّ الذي يخلقه الفهم والعلم والحكمة التي لا تتأتّى إلّا بالقراءات المختلفة والمتعدّدة لكلّ أنماط الثقافة.

لقد فهمت حقاً أنّ كلّ البشر في العالم أجمع هم إخوة، وأنّ الأمر لا يقتصر فقط على مَن توحّدهم البلدة أو الديانة أو اللون أو العِرق أو الجنسيّة، إذ نحن جميعاً إخوة، وهذا ما يفرضه علينا العقل المُتفتّح على كلّ الثقافات العالميّة.

لقد حرص الفلاسفة وكبار المُفكّرين على التصدّي لتلك المشكلات والعقبات والعراقيل التي واجهت أقليّات العالم إبّان فترات زمنيّة مختلفة، حتّى وإن كانت تلك المشكلات تخصّ بلاد أولئك الفلاسفة والمفكّرين، وحتّى إن كانت لا تخصّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجتمعاتهم، فإنّ دور المفكّر الحقيقيّ هو أن يتحدّث عمّن لا صوت لهم. دورنا جميعاً أن نتحدّث عن أولئك الذين لا يجدون مَن يُمثّلهم، علينا جميعاً أن نبحث عن حلول ناجزة لمشكلاتهم وأزماتهم المختلفة.

إنّه لأمر صحيح فعلاً أنّ ممارسة التفاؤل تدفع بالعالم إلى الأمام، في حين ممارسة التشاؤم واتّباع سياسته وفلسفته تؤدّي إلى عودتنا إلى الوراء على نحو أكيد لا يقبل الشكّ، فعندما يؤمن المرء منّا بأنّ شرور العالم سوف تنتصر على كلّ صور وآليّات الخير، فهذا ما يُعرَف بمنهج التشاؤم وفلسفته، أمّا إذا آمن المرء منّا في أعماق نفسه بأنّ من الممكن بالطبع قهر كلّ الصور السلبيّة التي يحملها هذا العالم، وأنّ بالإمكان أيضاً الانتصار على الأزماتِ والصعوبات، فمن هنا تحديداً تأتي فلسفة التفاؤل، ويمكن للبشر تجاوز كلّ أشكال الألم التي يواجهونها إبّان حيواتهم المختلفة.

إنّ عقليّة الشخص المتشائم تقول: ما فائدة الحياة، والموت في انتظاري غداً؟ ومن ثَمّ فإنّك تجد ذلك الشخص لا يستطيع التفكير على نحو إيجابيّ صحيّ، وبناءً عليه، تجده يُعاني دائماً من سوء الأحوال والقلق والتوتّر لأنّه يفترض على الدوام أنّ القادم سيّئ بكلّ الصور، وتجده يستسلم كلّياً لذلك الوضع حتّى تجد أنّ حالته الذهنيّة قد تأثّرت سلباً، وأنّه لم يعد قادراً على مواكبة إيقاع الحياة. وتجد الشخص المُتشائم أيضاً لا يعرف أيّ شيء عن حكمة التصرّف على نحو لائق، ولا يعرف كيف يخطّط لغده القادم، لأنّه يعزو غده إلى الموت، ومن ثَمّ فهو فاقد لكلّ أمل في هذه الحياة، ويؤمن بأنّ هناك مؤامرة كونيّة ضدّه، وبأنّ كلّ الأشخاص ينشدون إلحاق الضرر به، وبأنّ كلّ أحداث الحياة جرت حياكتها لإيذائه خصيصاً، فهذا هو السيناريو الخاصّ بعقل الإنسان المتشائم الذي لا يرى النور أبداً حتّى وإن كانت عيناه غارقتين فيه! فلو اتّبعت أنا الأخرى ذلك النهج السيّئ من خلال تفكيري الخاصّ، لكنت الآن قد أصبحت امرأة تعسة جداً، ولأخذت أكره وضعي الحالي، ولشعرت بالغضب والسخط الشديدين، بما لا يُحتمَل، بسبب إعاقتي السمعيّة والبصريّة، لكنّني لست أفكّر بتلك الطريقة السيّئة التي لن تؤدّي إلى نتيجة جديدة، فأنا لست أسيرة يأسي على الإطلاق، بل أنا امرأة حُرّة! أجل! لقد تحرّرت كلّياً من ذلك الشبح الذي يسمّى العجز، ولقد أدركت في أعماقي حقاً أنّني قادرة على تجاوز كلّ هذا لأنّني أعرف أنّ في

داخلي كوناً آخرَ لا يمكن لأيّ شيء أن يقهره، أو أن يُعيقه، لأيّ سببٍ كان.

ببساطة، إنّ الشخص المتفائل لا يمكنه العودة إلى الوراء لأيّ سببٍ كان، ولا يمكنه أبداً أن يتخلّى عن قضيّته الأصليّة في مساعدة الآخرين ومَدّ يد العون لهم، ولا يمكنه أن يتراجع عن شيء ما أو خطوة فاعلة، ولا يمكنه أن يتردّد في مسألةٍ ما.

إنّ عقليّة المتفائل هي التي مكّنته من تحقيق المزيد والمزيد من الإنجازات على المستويات والأصعدة كافّة، فلن تجد أبداً شخصاً مُتشائماً تمكّن من اكتشاف النجوم! ولن تجد مُتشائماً قد تمكّن من الإبحار بمفرده لاكتشاف أرضٍ جديدة، ولن تجد شخصاً مُتشائماً قد تمكّن من فتح نافذة روحيّة جديدة داخل المرء، ولن تجد أيضاً شخصاً مُتشائماً قد تمكّن من كتابة فلسفة حياتيّة دائمة، ولن تجد شخصاً مُتشائماً قد تمكّن من تحرير أقوام من عبوديّة ما، ولن تجد شخصاً مُتشائماً قد تمكّن من غزو العالم بالحبّ والسلام والتعليم والقراءات العلميّة، ولن تجد شخصاً مُتشائماً قد توصّل إلى اختراعٍ ما، ولن تجد شخصاً مُتشائماً قد تمكّن من اكتشاف جانب حياتيّ جديد للحياة. إنّ العقول المُتفائلة هي التي تتمكّن من بناء الحضارات الجديدة، وهي التي في مقدورها أيضاً التنبؤ بتلك الحضارات ومعرفتها واكتشافها.

فالتفاؤل هو الإيمان العميق الذي يقود المرء إلى تحقيق الإنجازات، ولا يمكن للمرء أبداً أن يفعل أيّ شيء من دون أمل.

إنّ أغلب فلاسفة وأدباء العالم الذين حاولوا بذل قصارى جهودهم لأجل تغيير العالم، قد تبنّوا نهج التفكير التفاؤليّ، الذي ساعدهم في تحقيق غاياتٍ سامية هائلة في مجالاتهم على صعيد إنسانيّ عالميّ، ومن هؤلاء تولستوي وشكسبير وغيرهما من المؤثّرين الكبار الذين تركوا بصماتهم الخاصّة على هذا الكوكب من خلال كتبهم وأفكارهم وإبداعاتهم.

إنّ عقليّة المتفائل أيضاً تجعله يفكّر في طريقة أكيدة للخلاص من شرور ذلك العالم. فمثلاً، لن تجد الشخص المتفائل يُنكِر وجود تلك الأشياء أو يتجاهلها ويتهرّب منها، لكنّك ستجده يواجهها ويحاول تجاوزها بكلّ الطرائق العمليّة من خلال دراسة تلك الأزمات ومراجعتها والبحث عن جذورها وأصولها، ومن ثَمّ ستجده يتوصّل، في

نهاية المطاف، إلى حلول واضحة وفاعلة.

إنّ المتفائل لا يقف مكتوف الأيدي أبداً أمام الحزن والمرض والعجز والإعاقة والتدهور والتأخُّر المجتمعيّ والاضمحلال أو التدهور الاقتصاديّ، لكنّك تجده يُنَقِّب في صفحات كتب التاريخ، ويطّلع على فلاسفة الآخرين، على اختلافهم، ويحاول أن يرى إن كان هناك أيّ تشابه في الأحداث أو في طريقة التعامل معها، وستجده أيضاً يُخَطِّط لنفسه، ولن يترك الآخرين يُخَطِّطون نيابةً عنه، لأنّ الشخص المتفائل يلتزم بالفكرة ولا يسير معه الأمر على نحوٍ عبثيّ فوضويّ من دون قراءة كاملة للمشهد مُسبقاً، ويليها وضع خطّة تفصيليّة لإنجازها، فأنا مثلاً، بدأت حياتي كشخص متشائم خائف يجهل كلّ شيء من حوله، لكنّني لاحقاً أدركت أنّ تلك العقبات ما هي إلّا حدود وعراقيل من صناعتنا نحن، وبناءً عليه، قرّرت أن أتجاوز كلّ ذلك بنفسي، وقرّرت أن أسخّر كلّ طاقاتي غير المحدودة للقيام بالعمل الخدميّ الإصلاحيّ المجتمعيّ في بلدان العالم قاطبةً، ومن هنا تعلّمت جيّداً معنى التفاؤل.

إنّ مفهومي لذلك الحبّ الأبديّ القادم من الإله هو أنّه أشبه بتدفُّق نور الشمس الخالدة، الذي لا يَغيب، والذي من شأنه الارتقاء بحياة المرء، والسفر برفقة روحه وعقله وجسده إلى أعالي الآفاق لدراسة الملكوت والأكوان وتدبُّرها بشكلٍ فلسفيّ شاعريّ يُدرك الإنسان من خلاله ماهيته، ويستمدُّ قوّته الحقيقيّة الأكيدة.

حينما تمتلئ روح المرء بكلّ هذه الطاقة الرّحبة فإنّ هذا في حدّ ذاته يجعله قادراً على التفكير وإعمار ذلك الكون، وبناء كلّ ما هو جديد، واكتشاف كلّ ما هو خفيّ. إنّه لا يمكن للمرء في اعتقادي البسيط أن يتمكّن من التوصُّل إلى كلّ تلك الاكتشافات من حوله، على مرّ التاريخ الإنسانيّ الطويل، من دون أن تتولّد في داخله تلك الحاجة الداخليّة الماسّة إلى تعرُّف الإله، عندما يتعزّز بناء العالم الروحانيّ. ووسط كلّ ذلك، وخلال رحلته الاستكشافيّة الخاصّة، يجد المرء نفسه قادراً وبجدارة على اكتشاف المزيد من أسرار الكون، واختراع أشياء أمدّه الكون سِرّاً بأفكارها. فمن أين إذاً يأتي الإلهام؟ لو فكّرنا ملياً في إجابة ذلك السؤال فسنجد أنّه يأتي من الكون، ومن خلال إنصاتنا إلى ذواتنا جيّداً، فكلاهما كذلك مُتّصِل بالآخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكنني أن أقول إنّ الشغف هو ذلك الشعور القويّ الإيجابي الذي يتولّد من انشغال المرء الدؤوب بالتفتيش داخل ذاته حتّى يكتشف تدريجياً أنّ هناك المزيد من الكنوز التي لا يعرف عنها شيئاً.

إذا استمع الإنسان إلى صوت الإله في داخله، يمكنه حينها ترجمة لغة روحه على نحوٍ لا يُوصَف، وبطريقة غير مسبوقة، وهذا ما فعله كلُّ الملهمين على مرّ التاريخ، ومنهم العلماء والأدباء والمخترعون والفنّانون والأبطال، الذين صنعوا التاريخ، وكانوا مُحرّكاً رئيساً لكلّ الأحداث التاريخيّة المهمّة التي قادت عجلة البشريّة إلى الأمام، وعلى رأسهم أولئك الذين حاربوا المزيد من الأمور السلبيّة، مثل العنصريّة والعبوديّة وحرمان المرأة من حقّها في الاقتراع والتصويت، ومن ثمّ الحروب والمجاعات وغيرها من القضايا التي كرّس عدد من الأبطال حيواتهم من أجل محاربتها.

إنّني أؤمن بأنّه من صميم الدين الصحيح أن يكون المرء مؤمناً بقوّة الإله وحكمته وعظمته غير النهائيّة، وغير المحدودة. إنّ إدراك المرء لذلك الأمر هو الذي يقوده إلى الإيمان القلبيّ العميق بذلك الإله الأكبر خالق تلك الأكوان المُمتدّة الهائلة والواسعة، ومن ثمّ تجد الإيمان يرتفع ويزداد ويتعمّق داخل كلّ منّا لأنّه بات تجلّياً واضحاً لتلك الفكرة.

ما أعرفه جيّداً أنّ الله هو المحبّة، وبناءً على ذلك فإنّني لا أقبل الخضوع العقليّ إلى أيّ فكرة تقول عكس ذلك، فتلك التفسيرات والتأويلات التي روّج لها رجال الدين المسيحيّ منذ فتراتٍ زمنيّة طويلة، وحقب غابرة، والتي يقولون فيها إنّ الله سوف يُعاقبنا ويدخلنا النار، أو حتّى تلك التصوّرات الساذجة عن الجنّة، التي هي أنهار وبحيرات أو مدينة زجاجيّة تتخلّلها الأنوار من كلّ اتّجاه، تجعلني أتساءل في حيرة عن مدى عقلانيّة أو منطقيّة ذلك؟ فالإله الذي أعرفه هو المحبّة والحكمة والقوّة التي لا تنتهي، ولا تزول، وربّما لهذا السبب تحديداً أعجبتني كتابات الفيلسوف سفيدنبوري، عالم اللاهوت الدّيني، التي قد كشفت عن تفسير مُستنير للدّين المسيحيّ، وكذلك أكّد خلالها سفيدنبوري على أنّ الجنّة والنار هي من مسائل معنويّة رمزيّة وليست ماديّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كذلك لديّ تعليق على أولئك الذين دائماً ما يتمتمون بأنّ «الله هو المحبّة»، ومع ذلك تجدهم لا يعرفون أيّ شيء عن ذلك المفهوم الكريم الواسع! فمن المفترض حينها أن يدركوا حقيقة ذلك، ويكثروا من التأمّل في أرجاء الكون، ويعرفوا حقاً كيف يُحبّون الآخرين ويُحسنون معاملتهم.

فعلى الرغم من أنّ رجال الدّين كانوا يتمتمون بتلك النغمة المُكرّرة في العصور القديمة الماضية إلّا أنّ تلك العصور كانت الأكثر قسوة وظلاماً وألماً وجهلاً! فكيف يستقيم ذلك يا تُرى؟

أعتقد أنّ أشدّ ما نحن في حاجة إليه هو أن تتّسق كلماتنا مع أفعالنا، فهذا أمرٌ لا شكّ فيه، ولا خلاف عليه، فإذا اتّسقت الأقوال مع الأفعال، حينها يمكننا الحصول على أشخاص مؤثّرين صادقين، وكذلك يمكننا إنتاج مجتمعات ناجحة حقيقيّة غير مُدّعية.

طيلة سنوات طويلة كنت أطرح على نفسي تلك الأسئلة، كما التالي:

مَن أنا؟ وما هي رسالتي على هذه الأرض؟ وهل أنا إنسان ذو أهميّة؟ مَن هو الإله؟ مَن هو الخالق؟ كيف يبدو؟ وهل هو يُحبّني؟ كيف يمكنني أن أتعرّف إليه؟ وكيف يمكنني أن أجده؟ ولماذا خلقني عمياء صمّاء؟ أعرف أنّي لم أولَد هكذا، لكن سرعان ما حدث هذا لي، فهل للإله من حكمةٍ ما في ذلك؟

لقد حاصرتني تلك التساؤلات في إصرار عجيب لا يرحم، إذ كنت أطرحها على ذاتي ليل نهار، وإن كانت تلك الأوقات لا تُشكّل فارقاً حقيقياً بالنسبة إلى المكفوفين، لكنّني تدريجياً بدأت أعثر على إجابة منطقيّة عن تلك التساؤلات التي كانت تحتلّ رأسي، وبدأت أفكّر في أوّل سؤال، ذاك الذي يخصّ: مَن أنا؟ وحينها، وجدتني أصِل إلى الإجابة بعد مُعاناة طويلة حقيقيّة، التي تتمثّل في أنّني امرأة تُحبّ القراءة والكتابة والإصلاح الاجتماعي والتفكير والتأمّل، وعندها تمكّنت من التوصّل إلى أنّ تلك الأمور هي أكثر الأمور التي أحبّها على الإطلاق. ومن هنا، أمكنني تحديد هويّتي الخاصّة وأهدافي في الحياة، فقط عندما حدّدت تلك المسائل، وعندما تطرّقت إلى السؤال القائل: ما هي رسالتي على الأرض؟ وفي ذلك الأمر تحديداً، قلت لنفسي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إنّ رسالتي مرتبطة بفن أكون. حينها، أدركت أنّ أهدافي هي أن أساعد الآخرين في تجاوز عقباتهم ومشكلاتهم، كما فعلت ذلك في حياتي الخاصّة. فأخذت أفكّر أيضاً وأتساءل: يا ترى، هل أنا إنسان ذو أهميّة؟ وبعد مرور فترة من الوقت، وبعد أن أمضيت وقتي في القراءات، توصّلت إلى مسألة مهمّة جداً أو مبدأ رئيس، وهي أنّ أهميّة الإنسان، ومكانته، تتحدّد انطلاقاً من الدور الذي يقوم به في المجتمع، أو على الصعيد العالمي، وهنا وجدت أنّني بالفعل قد أقوم بدورٍ مهمّ من خلال قدراتي المحدودة ظاهرياً، لكنّها غير محدودة في حقيقة الأمر، وعندما تأمّلت سؤالي الآخر الخاص بفن هو الإله، عندها أدركت الإجابة توّاً، عندما تأمّلت نفسي من الداخل، وعندما أصغت السّمع إلى الكون المحيط بي، وحاولت أن أتأمّله بعمق فلسفي وعلمي، وشاعريّة أكيدة. ولمّا سألت نفسي كيف يبدو الإله والخالق العظيم، فإنّني وجدت ذاتي تُجيبني بأنّ ذلك الإله هو الحبّ المطلق، والحكمة غير المنتهية، والقوّة غير المحدودة! ولمّا سألت نفسي لاحقاً: وهل يُحبّني؟ فإذا بي أشعر بأنفاس الكون تُلاطفني وتربّت على كتفي كما الكمنجات في رقّة.

الجزء الخامس

كيف أصبحت ناشطة اجتماعيّة؟

اقترن اسمي لأشهر عدّة بالميدان الاجتماعي والحركة الإصلاحيّة في المجتمع الأمريكي بشكلٍ عامٍ، وقد صرت شخصيّة مشهورة جداً تتناولها الصحف والجرائد المتعدّدة، حتّى إنّ الأصدقاء يخبرونني على الدوام أنّ اسمي يُنشر إلى جوار أسماء أبطال الميادين الرياضيّة المختلفة، وكذلك أصبحت أخباري أكثر تداولاً من أخبار الفضائح والجرائم! وهذا في حدّ ذاته أحسبه إنجازاً كبيراً! فأنا حقاً سعيدة للغاية أنّ العديد والعديد من الأشخاص يهتفون بقراءة أخبار إنجازاتي في مجالات التعليم، بالتعاون مع أستاذتي ومعلّمتي «آن سوليفان»، حتّى إنّ تلك الشهرة سوف تنتج عنها نتائج إيجابيّة.

يمكنني الاعتراف أيضاً أنّ قضيّة تناول الصحف لتلك الحركات الإصلاحيّة الاجتماعيّة التي أقوم بها في المجتمع، من شأنها أن تؤدّي إلى زيادة أعداد المُصلحين الاجتماعيين والنشطاء الذين يرغبون حقاً في توجيه طاقاتهم إلى العمل الخدمي. نحن حقاً في حاجة ماسّة إلى المزيد والمزيد من أولئك المتطوّعين، وتلك الدعاية «الإيجابيّة» ما هي إلّا وسيلة سليمة لجذب المزيد من الأشخاص، ولتحسين وضع المجتمع وحالته الحاليّة. ومن هذا المُنطلَق، فقد حرصت بشكل مُنتظم على كتابة المقالات الأسبوعيّة والأعمدة الصحفيّة الثابتة، التي تتحدّث عن أهميّة العمل الاجتماعي وجدواه، وكيفيّة القيام به، وما هو الدور الذي يضطلع به المتطوّع من أجل النهوض بصورة مجتمعه على نحوٍ ملموس.

إنّني أحاول أن أخصّص الوقت الكافي لمناقشة مسألة أهميّة كون المرء ناشطاً اجتماعياً من خلال مقالاتي الصحفيّة لتسليط الضوء على تلك القضيّة المهمّة، وأنا أعترف أيضاً أنّني، في بادئ الأمر، لم أكن أتحدّث عن تلك القضيّة كثيراً، ولم أناقشها مع الآخرين، وعلى الرّغم من أنّي كنت مُقِلّة في الحديث عن ذلك العمل، إلّا أنّ أصداء ما كنّا نفعله، كناشطين اجتماعيين فاعلين، كانت تصل إلى مسامع كلّ الصحافيين والمراسلين العاملين في عدد من أبرز الصحف والمجلّات، والذين قد تواصلوا مع

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

معلّمتي العزيزة «آن سوليفان»، وأرسلوا إليّ معها تحيّاتهم وتقديرهم الكبير. لكن، على الرّغم من ذلك، فقد بدأت بعض الأقلام في تلك الفترة أيضاً في انتقاد ذلك العمل، وبدأت في مهاجمتي بكلّ الطرائق، وهذا ما كان يتطلّب منّي أن أتفرّغ بعض الشيء للتحدّث عن تلك الحركة الاجتماعيّة وشرحها للجمهور، على الرّغم من أنّني لم أكن لأقرأ مقالات الهجوم وتلك الآراء السلبيّة كاملة.

لم يكن لديّ الوقت الكافي لأهدره في مُطالعة كلّ تلك الآراء المُناهضة لما أفعله، إذ كنت أظنّ أنّ الجميع سيمدّ يد العون لمساعدة الآخرين كما نفعل من خلال تلك الحركة الاجتماعيّة، إلّا أنّ هذا ما حدث.

وإذا طرح أحدكم ذلك السؤال، وقال: كيف أصبحت ناشطة اجتماعيّة؟ يمكنني حينها أن أجيب أنّه أمكنني أن أكون ناشطة اجتماعيّة عن طريق القراءة. لقد بدأت أوّلاً بقراءة كتاب هربرت جورج ويلز (عوالم جديدة)، الذي رشّحته لي معلّمتي آن سوليفان، وعلى الرّغم من أنّها لم تكن ناشطة اجتماعيّة، وهي ليست كذلك أيضاً الآن، ربّما كان بإمكانها أن تعمل كناشطة اجتماعيّة قبل أن تتزوّج، فأنا دائماً ما أجادلها وأتناقش معها في ذلك الشأن.

لقد جذبتها خياليّة ذلك الكتاب البديعة وأسلوبه المُذهل المُثير، وقد تمنّت في أعماقِ نفسها أن أهتمّ بهذا العمل أيضاً مثلها، وأن ينال إعجابي، ومن ثَمّ فقد قدّمت لي هذا الكتاب لأطالعه.

لقد عكفت على قراءة ذلك الكتاب كما عكفت سابقاً على قراءة المزيد من الكتب بطريقة الأحرف البارزة، تلك الطريقة التي كنت لا أعرف سواها، والتي على الرّغم من أنّها ساعدتني جداً في رحلتي التثقيفيّة الخاصّة، وأنّها مكّنتني من أن أعرف طبيعة الأشياء والعلوم والفنون والآداب، إلّا أنّني كنت أقضي ساعات طوال وأنا أتعثّر في قراءاتي البطيئة، وكنت أستغرق المزيد من الوقت حتّى أصل إلى صفحةٍ ما، وعلى الرّغم من ذلك، فأنا شديدة الامتنان لتلك الطريقة التي ساعدتني في مواصلة طريق العلم والمعرفة والإصلاح الاجتماعي.

كنت أيضاً أمضي ساعات طوال، وأطلب إلى معلّمتي العزيزة آن سوليفان أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تساعدني في قراءة المزيد من الكتب. لقد كانت حقاً مأساة حقيقيّة أن أقرأ نحو ٥٠٠٠٠ كلمة بطريقة الأحرف البارزة، لذا كانت آن تقرأ لي المزيد من الكتابات الأخرى، وكذلك مقالات ومراجعات الصحف والمجلّات، وكلّ ما يتحدّث عن الناشطين أو رؤاد الحركات الاجتماعيّة الإصلاحيّة على مرّ التاريخ. كنت أحاول التشبّع بكلّ حرف تعنيه تلك الكلمة، وكذلك كنت أحاول تنفُّس المعنى والفلسفة وفهمها، والاطلاع على المزيد من النماذج الموجودة على أرض الواقع، ومدى الإنجازات التي تمّ تحقيقها فعلاً، وأبرز التجارب الملهمة في البلدان الأخرى، وكيف نجحت تلك التجارب وبرزت هكذا بتلك الصورة اللائقة.

في الواقع، لقد كان زوج معلّمتي آن سوليفان رجلاً ماركسياً مُتعصّباً، وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه لم ينجح يوماً في إقناعي بذلك الفكر الذي يحبّه كثيراً، ويتعصّب له. يمكنني القول إنّه ببساطة لم يكن يُمثّل دعاية جيّدة مُقنِعة لهذا الفكر الماركسي بالنسبة إليّ، وعلى الرّغم من ذلك لم تكن زوجته ماركسيّة، وكذلك لم تكن ناشطة اجتماعيّة، وبناءً عليه، فإنّ ما تناولته الصحف بشأنها غير صحيح، إذ من الواضح أنّ ما تمّت كتابته كان من اختراع المُحرّر الصحفي، ومن وحي خياله الخِصب، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي حقاً أن تجدهم ضدّ مفهوم الحركة الاجتماعيّة الإصلاحيّة أو ما يقوم به الناشطون الاجتماعيّون.

إنّ هؤلاء الناس الذين هاجموني حينها لا يعرفون حقيقة ذلك المصطلح أو طبيعة مفهومه على الإطلاق.

لقد كتب الصحافيّ مُتحدّثاً باستهجانٍ واضح عن ذلك الدور الذي أقوم به في تلك الحركة الاجتماعيّة الإصلاحيّة، وقد قال حرفياً إنّني فتاة مسكينة عمياء، وها هم أولاء النُّشطاء الاجتماعيون، ومؤسّسو تلك الحركة الإصلاحيّة، يعمدون إلى استغلال إعاقتي وشهرتي لمحاولة كسب الرأي العامّ والمُتاجَرة بمسألة وجود فتاة «مسكينة» مثلي معهم!

في الواقع، لم يعجبني قطّ وصفي بالفتاة «المسكينة» في ذلك المقال الصحفي، لأنّني لا أحبّ ذلك الشعور بالشفقة نحوي، لكوني صاحبة إعاقة ما، فهذا في حدّ

ذاته لا يهمّ، بل ما يهمّ هو تلك الطاقة التي يمكنني استغلالها جيّداً في القيام بأعمال خدميّة مفيدة لمجتمعي وغيره من المجتمعات، فالأمر لا يتعلّق أبداً إن كان الشخص يُعاني من إعاقة ما أو لا.

كذلك، إنّها لمسألة مغلوطة كلّياً أن يتمّ التعامل مع الشخص صاحب الإعاقة هذا على أنّه إنسان بلا عقل، وبلا منطق، وأنّ في مقدور الآخرين الحكم عليه والتحكّم به بكلّ بساطة ويُسر! من المستحيل أن يكون هذا أمراً حقيقياً على الإطلاق، فأنا كامرأة صاحبة إعاقة سمعيّة وبصريّة، في مقدوري فعلاً أن أفكّر جيّداً، وأن أتأمّل المشهد من حولي للوصول إلى استنتاجاتي الخاصّة، لكنّ مسألة الحكم عليّ بأنّي فتاة مسكينة مُثيرة للشفقة، وأنّ هؤلاء النشطاء هم مَن يملون عليّ ما أفعله، وهم مَن يتاجرون باسمي، ويفكّرون نيابةً عنّي، هي أمور غير حقيقيّة البتّة، ومَن يروّج لها يريد أن يُرغِم الآخرين على تصديقها بأيّ صورة من الصور.

ما يمكنني قوله الآن إنّ كلّ ما تداولته الصحف والجرائد بشأن استغلال الآخرين لاسمي من أجل المُتاجرة به كلّها أمور غير صحيحة، ومحض شائعات وخرافات، لأنّ مروّجيها لم يكن لديهم المعرفة والعلم الكافي لمفهوم كلمة «ناشطة اجتماعيّة»!

لقد حاولت الصحف والجرائد في ذلك الحين أن تجعل «هيلين كيلر» لعبتها الوحيدة، فلقد ثرثروا مراراً وتكراراً بشأني وبشأن قضّتي في مجال الإصلاح الاجتماعي، وهاجموا تلك الحركات الاجتماعيّة، وقالوا: كيف تقودها امرأة عمياء صمّاء؟ هل كانت تلك الصحف حقاً تهتمّ بالنشاط الاجتماعي؟ الإجابة لا! إنّ كلّ تلك الصحف لم تكن مهتمة حقاً بمفهوم وطبيعة تلك الأعمال الخدميّة الاجتماعيّة، لكن ما كان يهمّهم حقاً هو كتابة اسمي بـ«البُنط العريض» على صحفهم لاستكمال مسلسلات النميمة والثرثرة بكلّ طريقة مُمكنة. لقد كانوا يتهكّمون عليّ، وكذلك على كلّ هؤلاء الذين قد تعاونوا معي من أجل القيام بتلك الحركات الاجتماعيّة والنشاطات الإنسانيّة، فكنت أنا الموضوع الأكثر إثارةً في ذلك الحين لمناقشته في الصحف بدلاً من تسليط الضوء على طبيعة تلك المشروعات وجوهرها.

يمكنني أيضاً أن أعترف بأنّني لم أجد صحفاً لتدافع عنّي في ذلك الوقت، ولقد

حرصت كلُّ الصحف على الاستهزاء بي، والتهكُّم على ما أفعله، ولم يحاول أحد أن يُدافع عني، حتَّى إنَّه كانت هناك صحيفة شهيرة جداً، وقد حاول محرّرها التواصل معي شخصياً، وحينها طلب مني أن أجري معهم حواراً أنشر فيه ورقتي التي تتحدّث عن طبيعة وأهميّة ذلك النشاط الاجتماعيّ الذي كنت أقوم به، وأدعو إليه، وعلى الرّغم من أنّ ذلك العرض قد أسعدني حينها إلّا أنّه تعذّر عليّ القيام به في ذلك الحين، وقد كان هذا لحُسن الحظّ، فقد فوجئت بتلك الجريدة، مع الأسف، بعدها بأيام، تشنُّ عليّ حملة هجوميّة شرسة، وقد سخرت منّي، وصوّرتني بأنّي شخصيّة مثيرة للشفقة والتعاطف الجماهيريّ فحسب.

يمكنني القول صراحةً إنّي لا أعمل على خدمة مصالح سياسات معيّنة أو أناس مُحدّدين، وإنّما أنا أحبّ النشاط الاجتماعيّ تماماً، كما بقيّة النُّشطاء، وأحاول حقاً أن أبذل قصارى جهدي من أجل توجيه جهودي جميعها في المسار الصحيح الذي يُحقّق الإفادة للجميع. في الواقع، لا توجد لديّ أيّ مشكلة فعليّة تتمثّل في الاعتراف بطبيعة عملي وإبداء حقيقته على الدوام، وإنّي لا أخجل أبداً من مُكاشفة ومواجهة كلّ مَن يحاربونني وينتقدونني، ودائماً ليس لديّ أيّ مشكلة في دعوة الأشخاص الكارهين لي ومَن يهاجمون ويُشكّكون في صِدق وجدوى ما أفعله، إذ إنّني أقول على الدوام إنّي جاهزة للقائهم والمكوث معهم، ومناقشة كلّ شيء أمامهم، وبكلّ وضوح.

إنّني شديدة الإيمان بأنّه لا يتوجّب على أصحاب القضايا المهمّة الهرب بعيداً عن المشكلات، بل يتعيّن علينا توضيح الأمور للجمهور العامّ، ويتعيّن علينا مُناقشة ما لا يعرفونه وما لا يتّفقون معه، فإذا لم يفعل ذلك مَن يسمّون أنفسهم «النُّخبة» فمَن إذاً يمكنه فعل ذلك؟

لكنّي حقاً أنزعج من بعض الأمور الأخرى التي لا تتّسم بالعدالة أو الحياديّة، والتي تأتي من جانب بعض الصحافيين مثلاً، الذين يردّدون دائماً أنّني شخصيّة مُثيرة للتعاطف، وهذا يجعلني أتساءل في فضول: ألا يرون هيلين كيلر سوى تلك المرأة الكفيفة الصمّاء؟ ألا يرون ما أفعله على صعيد العمل الاجتماعيّ، وكذلك على الصعيدين الأدبيّ والثقافيّ؟ أم أنّهم يرغبون في تصدير صورة ما لذلك الشخص

الذي يكرهونه ويُحاربون قضيّته لأنّهم «يجهلونها»، ثمّ يكتفون بتلك السمات الساذجة المُجحِفة التي يصفونه بها.

إنّني، في واقع الأمر، أتعجّب أيضاً من ذلك الصحافي الشهير جداً، الذي يهاجمني على الدوام على صفحات المجلّات والجرائد، ومع ذلك يطلب إليّ سِرّاً أن أكتب مقالاً دائماً لجريدته الغرّاء!! في الواقع، أنا أتعجّب تمام العجب من تلك الازدواجيّة التي يمتاز بها أولئك الأشخاص، وكأنّهم يرغبون في تصدير صورة ما للمجتمع والرأي العامّ، وحقيقة ما يؤمنون به في أعماق نفوسهم هي أشياء أخرى مُختلفة كُليّاً!

وبما أنّني امرأة تحاول إعمال عقلها في تأمّل ودراسة كلّ الأمور من حولها، وبما أنّني لست امرأة عمياء صمّاء ساذجة مُثيرة للشفقة والتعاطف، كما تحاول تلك الصحف أن تُرَوِّج لي على هذا النحو، إلّا أنّي قد أدركت بطريقةٍ ما أنّه ربّما تقوم تلك الصحف باستغلال اسم هيلين كيلر ومهاجمته وتشويه ذلك النشاط الاجتماعيّ الذي تقوم به فقط من أجل زيادة مبيعات تلك الصحف، من أجل الحصول على المزيد من المال.

أنا لا أكره الصحافيين، على النقيض، فأنا أحبّهم جداً وأحترمهم، وبعض أصدقائي المُقرّبين من الصحافيين، لكن أعتقد أنّهم في معظم الأوقات لا يقومون بالدور الذي يتوجّب عليهم القيام به في علاج الأزمات والقضايا المختلفة، الذي لن يكلّفهم شيئاً، فتجدهم مثلاً يتنكّرون لذلك الدور، ولا يقومون به على نحو صحيح فيدعمون جهودنا في مسألة الحِراك الاجتماعيّ، أو أنّهم يساعدون بطريقة أو بأخرى في إعانة أصحاب الإعاقات السمعيّة أو البصريّة أو غيرها من الإعاقات الأخرى، إذ إنّ في مقدورهم القيام بهذا الدور بكلّ سهولة ويسر.

أعرف جيّداً أنّ الجهات التمويليّة التي هي المسؤولة عن إصدار تلك الصحف هي المُستفيد الأول من كلّ تلك الحملات الصحفيّة، فتلك هي مؤسّساتها، وهي مَن تقوم بإدارتها وتوجيهها بالطريقة التي تُفضّلها. وفي أيّ حال، ليس من مصلحة أولئك الصحافيين أبداً أن ينشروا مقالاتي أو مقالات غيري من النُّشطاء الاجتماعيين، وذلك لأنّ الجهات التي تُموّلهم لا تُعجبها النشاطات الاجتماعيّة الاشتراكيّة، ولا تؤيّد ذلك

الأمر على الإطلاق، وتالياً، هي تخدم أهدافها الخاصّة وتوجُّهاتها، وفقط بعيداً عن الأهداف المجتمعيّة العامّة.

لقد التقيت منذ فترة أيضاً صحافيّاً آخرَ يعمل في إحدى المجلّات الكبرى الشهيرة، وقد أظهر إعجابه بأفكاري ومحاولاتي الخدميّة وفلسفتي الخاصّة على نحوٍ سِرّيّ، في حين لَمّا آن الأوان ليكتب عموده الأسبوعيّ، عمد إلى مهاجمتي وكأنّه لم يرَني يوماً! حتّى إنّه عزا سبب عدم قدرتي على التمييز بين تلك الموضوعات والقضايا إلى طبيعة إعاقتي! وأنّها بالتأكيد تجعلني عاجزة عن التفكير على نحوٍ موضوعيّ حقيقيّ كما الأشخاص العاديين العقلاء، بل إنّها تجعلني أكثر عاطفيّة وفوضويّة في اتّخاذ قرارات ما وتنفيذها على أرضِ الواقع.

لا أعرف لماذا لا ينتقدنا الآخرون بعدالة؟ لماذا لا يُعارضون آراءنا بكلّ تقديرٍ واحترام؟ لماذا يُفترَض أن يستحيل ميدان الفكر والعمل إلى ساحات قتال وحشيّة؟ لماذا يُهاجمني الصحافيّون مُتّخذين من إعاقتي البصريّة والسمعيّة حُجّة لدعم هجومهم الشّرِس؟ أجل، أنا امرأة لا ترى ولا تسمع، لكنّي امرأة تقرأ! لقد قرأت كلّ الكتب التي تتحدّث عن النشاط الاجتماعيّ، لقد قرأت عشرات الكتب باللغات الإنجليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة، فإذا كان هذا الصحافي الذي يُهاجمني بسبب إعاقتي قد قرأ تلك الكتب التي قرأتها، وبتلك اللغات، فيمكنني حينها أن أعترف له بأنّه أكثر رجال العالم حِكمة على الإطلاق!

Telegram:@mbooks90

إنّنا في حاجة ماسّة إلى التحلّي بذلك الوئام والتناغم، فهذا هو السبيل الوحيد لنهضة الأمم والمجتمعات على نحوٍ عامّ، فكيف يمكننا إذاً أن ننهض بأنفسنا ونحن نقف في أماكننا بلا حراك، وإذا ما تحرّك أحدنا من أجل تطوير المجتمعات والنهوض بها، تجدنا نحاربه ونهاجمه ونهزأ به! علينا أن نتوقّف عن مُحاربة بعضنا بعضاً! علينا أن نتوقّف على الفور عن إضاعة وقت الإنسانيّة الثمين في مثل تلك التفاهات الواضحة!

إنّ الدور الذي يتعيّن على المثقفين والعلماء والكُتّاب والنُشطاء القيام به هو أن يدافعوا عن هؤلاء الأشخاص الكادحين العاملين الذين يمضون أوقاتهم في المصانع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو المهن الحرفيّة البسيطة، إذ يتوجّب علينا التخفيف من أعبائهم تلك، والمطالبة بحقوقهم، فإذا لم نفعل نحن ذلك، فيا تُرى مَن سيقوم بهذا الدور بدلاً منّا؟

مَن سيدافع عن كلّ هؤلاء العُمّال والمُشرّدين؟ مَن سوف يساعدهم ويحلّ قضاياهم وأزماتهم إذا حرصنا جميعاً على القتال ضدّ بعضنا بعضاً، ومُحاربة نجاحاتنا، واستهزاء أحدنا بالآخر من دون تقديم الدّعم الحقيقيّ الملموس؟!

أهميّة حقوق المرأة

يتحدّث كثير من الرجال في زماننا هذا باستهجانٍ شديد عن قضايا حقوق المرأة وحقّها في مسألة الاقتراع والتصويت الانتخابي! إنّهم يرون أنّ تلك المسائل هي أمور غير ضروريّة على الإطلاق، وأنّها لا تُناسِب كيان المرأة وطبيعتها، لكن كيف ذلك؟ أليست المرأة كائناً مُساوياً للرجل في كلّ شيء، وبناءً على ذلك، يحقّ لها أن تحصل على الحقوق عينها؟ ألا تعيش المرأة في هذا المجتمع نفسه الذي يعيش فيه الرجل، وألا تحيا تلك التفاصيل والكواليس نفسها التي يحياها الرجال أيضاً؟ ألا تُمثلها تلك الانتخابات بحسبانها كائناً حياً يعيش في هذا المجتمع ويُشارك فيه؟ ألا يحقّ لها أيضاً التنفيس عن نفسها؟ ألا يحقّ لها أن تُشارك في هذا المجتمع، وأن تقوم بتلك الحركات والنشاطات الاجتماعيّة التي من شأنها أن تُغيّر كلّ شيء؟

فالحقوق هي الأشياء التي نحصل عليها عندما نصبح أقوياء بشكلٍ كافٍ للمُطالَبة بها، فالرجال أنفسهم قضوا قرابة مئة العام في محاولة الحصول على تلك الحقوق التي باتوا يملكونها الآن، وأصبحوا يصفونها بأنّها حقوقهم الأصيلة الأكيدة، واليوم تطالب النساء بتلك الحقوق من أجل الأجيال القادمة في المستقبل.

يتمكّن كلّ قارئ يتطلّع في كتب التاريخ والأعمال السابقة، في المجالات الإنسانيّة كلّها، من اكتشاف أنّ تلك الأمور التي هاجمها الجميع، في حينها، قد باتت مُباحة في أوقاتٍ زمنيّة لاحقة، ويأتي ذلك بموجب التطوّر والتحضّر الذي يمرّ به الإنسان، وتأثير ذلك في عقله البشريّ، فالعقل البشريّ في بداية الحياة، وفي صورها البدائيّة، كان عقلاً محدوداً متواضعاً، وكان يرفض قبول أشياء معيّنة بسبب الأديان والأعراف والعادات والتقاليد، ثمّ لاحقاً تمكّن العقل البشريّ من التحرّر من تلك العوائق والقيود

شيئًا فشيئاً حتّى بات قادراً على غزو كلّ مجالات الحياة والاختراعات والإبداعات، واستطاع أن يقوم بالأبحاث العلميّة الجريئة، وكذلك جنباً إلى جنب، تمكّن العديد من أبطال البشريّة، على مرّ التاريخ، من قيادة الحركات الثوريّة والاجتماعيّة التي من شأنها أن تدعم حريّة المرء، وتُحارب العديد من القضايا التي تُسيء للإنسانيّة وتقهرها. نحن الآن لسنا كما كنّا من قبل، إذ إنّ الإنسانيّة تسير في طريق التقدّم والسعي نحو الأفضل في المجالات والميادين المختلفة كافّة، ويأتي ذلك نتيجة لتطوّر الشعور والارتقاء، وكذلك تطوّر العقل البشريّ وارتفاع الوعي والإبداع، ولن يمكننا أبداً تحقيق تلك الغايات السامية المهمّة في ظِلّ إهمال حقوق المرأة وقضاياها، فالمرأة هي في ذلك شريك الوطن الآخر للرجل، التي يتعيّن أن يتمّ ضمان حقوقها في المجالات المختلفة، ومنها في سبيل المثال لا الحصر؛ المجال السياسيّ، فحقّ المرأة في التصويت هو أمر مهمّ جداً، ومن دون ذلك الحقّ لن تتمكّن المرأة من الحصول على قوّتها الخاصّة، ولا داعي لأن يقلق الرجال بخصوص الأمر هذا، فإذا ما حصلت المرأة على ذلك الحقّ فستكون حينها قادرة بكلّ تأكيد على الدفاع عن نفسها، والاعتماد على ذاتها في كلّ شيء، مثلها تماماً مثل الرجل.

إنّ القوى السياسيّة هي التي تقوم بتشكيل شؤون الدولة، وكذلك هي المسؤولة عن تحديد طبيعة تلك العلاقات البشريّة الإنسانيّة بيننا، وبين بعضنا بعضاً. وبناءً عليه، فإنّ المواطن الذي يملك حقّه الكامل في الاقتراع والتصويت، هو سيّد قراره، في حين تصبح أولئك النساء المحرومات من ذلك الحقّ الأصيل غير قادرات على المُدافَعة عن حقوقهنّ، ويقعن بالتّبعيّة تحت رحمة قوانين بشريّة الصُنع.

وقد أوضحت التجارب أنّ تلك القوانين لم تكن عادلة بالنسبة إلى أولئك النساء في المجتمع. لقد صُنِعَت تلك القوانين التشريعيّة حتّى تُحمي نساء المجتمع، وكذلك أيضاً لتشكّل قوّة داعمة أكيدة بالنسبة إليهنّ في ظِلّ وجود آبائهنّ وأزواجهنّ، الذين لا يهتمون بتلك القضيّة، ولا يبذلون جهودهم من أجل حمايتهنّ ومنحهنّ حقوقهنّ الأصيلة في ذلك المجال.

إنّ أجور ورواتب النساء في بعض الولايات تخصّ آباءهنّ وأزواجهنّ، حيث إنّه

أيضاً غير مسموح للمرأة بحيازة البيوت والعقارات، وفي أجزاء كبيرة أخرى من تلك الديمقراطيّة المستنيرة يعدُّ الأب هو المالك الوحيد للطفل، وكأنّ تلك التشريعات القانونيّة قد وُجِدَت تحديداً من أجل إخراس المرأة وكتم صوتها في قاعات المحاكم التشريعيّة.

إنّ المرأة العاملة تُعاني حقاً في مجتمعنا اليوم، ولا تحصل على حقوقها، ولا توجد قوّة قانونيّة تحاول خدمتها والوقوف إلى جانبها، والدفاع عنها بأيّ شكلٍ من الأشكال.

إنّ تلك المسائل والقضايا الاقتصاديّة الطارئة هي التي جعلت المرأة تُطالِب بحقّها في الاقتراع والتصويت، فما القيمة حقّاً في أن تُحرَم المرأة من حقّها في الاقتراع في ظِلّ عملها في ميادين مختلفة وتقاضيها رواتب لا تحصل عليها في نهاية المطاف بل يحصل عليها زوجها أو أبوها؟!

أرادت إحدى المنظّمات النسائيّة مؤخّراً أن تقوم بتوفير التدابير الاجتماعيّة من إحدى الهيئات التشريعيّة في نيويورك، وتمّ توقيع العريضة من قِبل نحو ٥٠٠٠ امرأة، وقد عمد رئيس اللجنة إلى عرض المشروع ومناقشته أولاً، ثمّ اكتشف أنّه مشروع جيّد، وأنّه يتعيّن تمريره والمضي قُدماً فيه. لكن، على الرّغم من ذلك، بعد مرور فترة طويلة من الوقت، لم يحدث أيّ شيء بخصوص ذلك المشروع، ولاحقاً أرسلت مجموعة من النساء يسألن عمّا آل إليه وضع ذلك المشروع، وقد جرى تذكيره بتلك العريضة التي وقّعت عليها ٥٠٠٠ امرأة، وحينها قال رئيس اللجنة إنّ مسألة توقيع ٥٠٠٠ امرأة على عريضة يعدُّ أمراً غير كافٍ للتحرّك من أجل الخطوة القادمة، لكن يختلف الأمر كليّاً إذا ما وقّع على تلك العريضة خمسة رجال فقط!

إنّ غالبيّة النساء اللواتي طالبن بحقّهنّ في التصويت، هنّ من أبناء الطبقة العاملة، فلقد حدث تغيّر هائل في العالم الصناعيّ منذ أن بدأت الماكينات تحلّ محلّ الأيدي العاملة.

لقد وجد الرجال والنساء أنفسهم مُجبرين على التأقلم مع نظام جديد يشمل الإنتاج والتوزيع، ولقد تمكّن عصر الآلات من استغلال النساء والرجال معاً بطريقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هائلة غير مسبوقة، وفي أثناء تلك المُعاناة الوجوديّة نَجم ذلك التغيير الذي عانت منه النساء والأطفال بشكلٍ كبير، والذي يفوق المُعاناة التي شهدها الرجال.

لقد شكّلت تلك التحدّيات الاقتصاديّة عبئاً حقيقياً أرهق كواهل النساء، وجعلهنّ يتّجهن نحو ذلك المسار من دون تردُّد، ولم يكن في مقدورهنّ التحدُّث عن تلك الظروف الصعبة التي يعشنَ ويكدحن في ظِلّها في السابق.

لقد أُجبِرن على تحمُّل كلّ تلك المهام الشاقّة الصعبة بكلّ صمت وانكسار، ومن دون أن يكون لديهنّ أيّ حيلة في التعبير عن أنفسهنّ، ذلك الأمر الذي قاد إلى البؤس وتدهور الأحوال.

لم يكن في مقدورهنّ رفع أيديهنّ للدفاع عن أنفسهنّ بشكلٍ فاعل ملموس، ولم يكن في مقدورهنّ احتمال أيّ عدائيّة أو إيذاء مجتمعيّ، إذ كنّ أشبه بأصحاب الإعاقة التي تمنعهم من المُضي قدماً، وإنّني هنا أتحدّث عن نفسي، في سبيل المثال، فتلك الإعاقة تجعل المرء يشعر في بداية المطاف أنّه غير قادر على التحكُّم بجسده وعقله.

لقد انزعج الرجال العاملون من فكرة وجود امرأة عاملة بينهم، وزاد ذلك من مُعاناة النساء، فلقد توجّب عليهم التنافس في المصانع والمكاتب أنفسها، ولم يكن هناك قوانين مُلائمة للفصل بينهم في ذلك الشأن.

كان على هؤلاء النساء العمل جنباً إلى جنب مع العُمّال الذكور، وكان عليهنّ بذل تلك الجهود الشاقة في ظِلّ تلك الأضواء الخافتة المُعتِمة، ولقد زادت كلّ تلك الأشياء من مُعاناة النساء الكادحات في تلك المرحلة.

لقد ازدهرت حياة الأدب الذكوريّ جنباً إلى جنب مع الصناعات الذكوريّة وخلافها من مجالات الحياة الأخرى، وهذا في حدّ ذاته كان يعكس صورة مُحدّدة واضحة لتلك العنصريّة والتّمييز الذي ظلّ موجوداً بين الرجل والمرأة في تلك الفترة الزمنيّة، وشمل أيضاً مجالات العمل والصناعات الأخرى، وكذلك الفنون والآداب والشّعر والتاريخ الذي كتبه الرجال وحدهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّني شديدة الإيمان بأنّه لو كانت المرأة من الأشخاص الفاعلين المسؤولين عن إدارة العالم ودوله المختلفة لكانت قد تمكّنت من القضاء على فكرة الحروب التي اخترعها التاريخ الذكوريّ في بداية المطاف، فلو كان هذا الأمر في أيدي النساء لما وقعت أيّ حروب، على الرّغم من أنّه خلال تعليمنا للنساء والرجال، تُحاول مناهجنا التعليميّة أن تعلمهم بأبطالِ الحروب! وضرورة تكريمهم، لكن ألا يجدر بنا تقديم أبطال السلام على أبطال الحرب؟

ألا يجدر بنا أن نُعلّم الأطفال في مدارسنا معنى السلام ومنهجه أولاً، ولا يتعيّن علينا تكريم الحرب ورجالها، فالحرب هي جريمة جماعيّة في نهاية المطاف!

في الواقع، إنّني أرى أنّ المرأة كائن اجتماعيّ حقيقيّ، وهذه الصفة متأصّلة فيها أكثر من تأصّلها داخل الرجل، فحتّى لو تأمّلنا وضع المرأة ودورها في الأسرة، فسنجد أنّ المرأة هي المسؤولة عن تربية الأبناء والاختلاط بهم، والاحتكاك بهم بصورة أكبر بكثير من الرجل الذي يتّسم بعض الشيء بالفرديّة والانعزاليّة، وهذا في حدّ ذاته أمر يُناقِض فكرة إبعاد المرأة عن الحياة الاجتماعيّة، وحرمانها من حقّها الأصيل في المشاركة في الحياة السياسيّة، ومنعها من الاقتراع.

في الواقع، أتعجّب كثيراً عندما يقول عدد من الرجال المدافعين عن تلك المسألة، إنّهم يتصرّفون مع النساء بنُبلٍ واضح. أنا لا أشكّك في هذا النُبل بكلّ تأكيد، لكن ما أتحدّث عنه الآن، وأفرِد له الصفحات لمناقشته على نحوٍ عقلانيّ ومنطقيّ، هو أنّه كيف يستقيم التصرّف النبيل مع منع الإنسان من الحصول على حقّه؟ فأيّ نُبل في حرمان المرأة من الحصول على حقّها في التصويت والمشاركة في الحياة السياسيّة للمجتمع، التي هي جزء لا يتجزّأ من الحياة المجتمعيّة ككلّ؟ عن أيّ حكمة إذاً نتحدّث ونحن نمنع أولئك النساء من التعبير عن إرادتهنّ الحُرّة؟ وثمّة سؤال آخر، ألا يعكس ذلك نوعاً من الاستبداد والطّغيان؟ عندما تحرم شريكك في الوطن من الحصول على حقوقه المُساوية لك بحجّة أنّك تفعل ذلك نيابةً عنه أو أنّك تفعل ذلك لحمايته؟

إنّ النساء قادرات، وبكلّ الشّبل، على حماية أنفسهنّ جيداً، كما أنّهنّ كائنات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاملة واعية تماماً كما الرجال، وكلاهما شريك في ذلك الكون. وبناءً عليه، يجب أن يحصلا كلاهما، كلٌ على حقوقه على نحو مُنصِف، ومن دون أيّ مُزايدة، فلن يتحقّق ذلك الازدهار الخاصّ بنا وبالبشريّة ككلّ من دون تلك المساواة حتّى يتمكّن الرجال والنساء معاً، وجنباً إلى جنب، من تحقيق الانتصارات على الأصعدة كافّة، فذلك حقاً هو الخلاص الوحيد والأكيد.

رؤية جديدة للمكفوفين

لقد زرت محالّ الحلوى، وعدداً كبيراً من المصانع الأخرى، وكذلك ذهبت إلى تلك الأحياء الفقيرة المزدحمة في نيويورك وواشنطن، وعلى الرّغم من أنّي لم أتمكّن من رؤية القاذورات من حولي بعينيّ، لكنّني تمكّنت من شمّ رائحتها.

لقد شهدت بنفسي تلك المعاناة الهائلة التي عانت من ويلاتها النساء اللواتي لديهنّ أطفال، فهنّ لا يملكن وقتاً حقيقياً من أجل رعايتهم على نحوٍ لائق. ومن ثَمّ، فهنّ يقضينَ معظم أوقاتهنّ يُحاربنَ في تلك المصانع التي يوجدنَ فيها، أضِف إلى ذلك حرمانهنّ من حقوقهنّ البسيطة، ذلك الأمر الذي ترتّب عليه مواجهتهنّ لضغوطٍ مُضاعَفَة.

في رأيي، أعتقد أن لا خلاص من تلك الأزمة إلّا بالتعليم وتطويره إلى الحدّ الذي يتمكّن معه الأفراد، من خلاله، من إدراك واجباتهم وحقوقهم، ومن ثَمّ يمكننا إذابة تلك المشكلات والأزمات والعراقيل الأبديّة التي عانينا منها كثيراً طوال تاريخنا الإنسانيّ.

الناس لا يحبّون تَمضية أوقاتهم في التفكير، وهذا راجع إلى أنّ هذا التفكير سيؤدّي إلى استنتاجات. بدوره، لن تكون تلك النتائج مُبهجة على الدوام، وهذا يُشعر المرء منّا بغصّة في الروح، لكنّني أرى أنّ التفكير هو هديّة ربانيّة لا تُقدّر بثمن. إنّها مسؤوليتنا فعلاً أن نمضي أوقاتنا المختلفة في التفكير بعُمق، فعندما نتساءل: لماذا تبدو الأشياء بهذا الشكل الذي تظهر عليه؟ نجد أنّ ذلك يرجع إلى أساس المجتمع الذي يعتمد على الفرديّة والغزو والاستغلال.

إنّ بناء ذلك المجتمع قد أُقيم على أساس مغلوط يعتمد في جوهره على تفعيل دور الرجل وإهمال وتجاهل دور المرأة، ومن ثمّ يمكن للرجال الحصول على حقوقهم كاملةً في المجالات كافّة، وعلى الأصعدة جميعها، في حين تتعرّض النساء للحرمان من تلك الحقوق، وتصبح المرأة عملياً مجرّد تابع للرجل، وهذا يزيد من الضغوط والعنصريّة المفروضة على عواتق النساء.

إنّني أؤمن جداً بضرورة تحرّر مجتمعاتنا من أغلالها حتّى نتمكّن من المضي قُدماً، فكلّ ما يشغلنا الآن هو البحث في تلك القضايا الحقوقيّة التي إن لم يتمّ حلّها بشكلٍ مُنصِف وعادل فلن تقوم لنا قائمة. فإذا أردت أن تعرف كيف حال مجتمع ما أو دولة ما، فانظر إلى وضع المرأة فيه، وحاول أن تتأمّله جليّاً من كلّ الزوايا، وعلى كلّ الأصعدة، فالمرأة هي تلك الأيقونة الفضيئة لأيّ دولة، فكيف إذاً، يمكن لبعض رجال تلك الدولة سرقة نورها، ألن يغطّي الظلام الدامس حينها تلك المجتمعات؟ عندما يخبو نور النساء؟ ألسنَ شريكات الوطن والحياة والمجتمع، وفي مقدورهنّ بناء المجتمعات على نحوٍ عصريّ متقدّم مواكب لكلّ التطوّرات الحضاريّة؟

إنّ إجابة كلّ هذه التساؤلات تتمثل ببساطة شديدة في المساواة بين الرجل والمرأة، وإعطاء المرأة مستحقاتها، ومساندتها في نيل حريتها تدريجياً، فإنّ كلّ ذلك من شأنه أن يؤدّي إلى وجود مجتمع حقيقي ناجح وقادر على المضي قدماً.

يمكنني القول أيضاً إنّ المجتمعات الضعيفة هي التي تشهد قصوراً واضحاً في تلبية احتياجات مواطنيها في الحصول على حقوقهم، سواء الرجل أم المرأة، فكلانا يهدِر أوقاتاً طويلة عبر الزمن في محاولة كسب بعض الحقوق المشروعة أصلاً، التي تعدُّ من حقوقنا الأصيلة على المستوى الإنساني.

نحن حقاً في حاجة إلى خلق تلك الحالة من التوازن حتّى نتغلّب على مسلسلات قضايا العنصريّة والتمييز، فأسوأ أنواع التمييز التي وقعت على مدار التاريخ، هو التمييز بين الرجل والمرأة، وهذا لأنّهما شريكا تلك الحياة، وكلاهما قادر على إنجاز المزيد من الإنجازات، سواء في مجال العلوم أم الفنون أم الآداب أم الصناعات أم الفلسفة، فالمرأة تقف جنباً إلى جنب مع الرجل في كلّ شيء، لذا من غير المنطقي ألّا

الممسوحة ضوئياً بـ CamScanner

يقف الأخير إلى جوارها من أجل غدٍ أفضل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء السادس

آخر أيّام حياتي

حينما يكبر الناس في العمر، يبدأ الآخرون من حولهم في الثرثرة بشأن خرفهم ومدى استعدادهم للموت، وجاهزيتهم له. لكنّني، على الرّغم من استعدادي الكبير لتلك المرحلة الأخرى من الحياة، إلّا أنّني قرّرت ألّا أجلس مكتوفة اليدين كما يفعل كلّ العجائز، ثمّ أتأمّل العالم من حولي من إحدى زوايا المنزل الضيّقة، أو ربّما أن أنظر في فتورٍ ولا مُبالاة عبر النافذة لأرى الناس الذين يمشون في الشوارع والطرقات، وأتعجّب كلّ العجب من مدى تفاؤلهم وحيويتهم ونشاطهم، في حين أنا أنظر في يأسٍ واضح إلى كلّ تلك التفاصيل المُجاورة لي. لكنّي بدلاً من ذلك، فاجأت الجميع، وعكفت على كتابة مذكّراتي لمرحلة أخرى من مراحل حياتي، التي تختلف بعض الشيء عن تلك المذكّرات التي كتبتها في مراحل حياتي الأولى، لكنّ تلك المذكّرات التي قرّرت كتابتها عن آخر أيّام حياتي، عندما أصبحت امرأة هرمة، كانت هي داعمي ومؤنسي الوحيد. لقد اعتدت الكتابة منذ صغري، فباتت هي علاجي الأوحد، وصديقتي التي لا تملّ، ولا تبتعد.

إنّني أؤمن أنّه خلال رحلة المرء في كتابة مذكّراته، لا يتّبع رحلة معيّنة، إنّه لا يناقش أمراً ما ويتتبّع نتائجه واستنتاجاته، وعلى النقيض، فإنّ الواحد منّا يجد نفسه يسكب روحه على الورق خلال كتابة تلك المذكّرات، فنحن حقاً لا نعمد إلى رسم مُخطّط بعينه قبل الكتابة، لكنّنا نُلقي بذواتنا مع مداد الحِبر، وتجدنا نُخرِج ما لا نعرفه، ونُعبّر عمّا لا نُخطّط للتعبير عنه بشكلٍ مُفصّل. نحن حقاً لا نكتب مذكّراتنا، بل هي ما يكتبنا من دون أن ندرك أو أن نشعر، فنحن فقط نترك لها الحُكم الأول، ونحاول أن نُخرج كلّ ما في جعبتنا بشكلٍ تلقائي، فإذا بنا نجد أنّنا حقاً نروي قصّتنا وسيرتنا الذاتيّة! فإذا بنا نروي تلك الحكاية التي عشناها بمفردنا تماماً، لكن ها نحن أولاء نُشارك الآخرين فيها! إنّها حقاً رحلة مُمتعة تستحقّ كلّ هذا العناء.

لَمّا عكفت للمرّة الأولى على كتابة سيرتي الذاتيّة الأولى، والمُعنونة باسم (قصّة حياتي)، كنت أكتب تلك التدوينات اليوميّة العاديّة البسيطة التي تُلخّص حياتي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك رؤيتي لكلّ شيءٍ حولي، ولم أكن قطّ أظنّ أنّ من الممكن أن تروق تلك اليوميّات البسيطة لأيّ شخص آخر إلّاي، حتّى إنّني فوجئت عندما أخبرني أحد الناشرين أنّه مهتمٌ بنشر كتابي هذا، ودهشت جداً إن كان هناك أيّ قارئ يهتمّ بالاطّلاع على تلك التدوينات الشخصيّة المتواضعة.

لازلت أتذكّر جيّداً ذلك اليوم الذي خاطبني فيه أحدهم، واستأذنني لبعض الوقت للالتقاء بالسيّد ألكسندر بوك الناشر، وكنت حينها أنتظر موعد درس اللغة اللاتينيّة الخاصّ، ولـمّا ذهبت إلى لقاء السيّد ألكسندر، فوجئت للغاية حينها بما قاله لي هذا الناشر حول اهتمامه بنشر مذكّراتي الأولى، المعنونة بـ (قصّة حياتي)، وقال لي إنّه مهتمٌ جداً بنشر هذا الكتاب. وفي تلك الأثناء، قلت له: حسناً، دعني أعمل على تنقيحه ومراجعته أوّلاً. ابتسم حينها السيّد ألكسندر وقال لي إنّ الكتاب رائع جداً، وإنّه ليس في حاجة إلى ذلك. حينها، أخبرته أنّي غير واثقة إن كان أسلوبي الأدبيّ في الكتابة حقاً سيعجب الناس. وعلى الفور، قال لي إنّ هذه هي وظيفته كناشر ذي خبرة؛ أن يعرف ذلك بمجرّد الاطّلاع على الكتاب. وأكّد لي أنّ ذلك الكتاب سيكون له شأن كبير، لأنّ له تأثيراً في القارئ، ويجعله ينفعل به.

في الواقع، أيضاً، لقد عرض عليّ السيّد الناشِر ألكسندر بوك أن أوقّع معه عقداً يصل إلى ثلاثة آلاف دولار! لم أكن أصدّق ذلك الرّقم حقاً، وأنّه سيكون مقابلاً ماديّاً لتلك الكلمات البسيطة التي حسبتها يوميّات بسيطة وعاديّة.

في مذكّراتي الأولى، حاولت أن أتحدّث بكلّ صراحة وشفافية عن تلك الظروف القهريّة والتحدّيات التي واجهتني بقوّة إبّان فترة دراستي في الجامعة، إذ لم يكن في مقدوري أن أتلقّى تعليمي الجامعيّ كأيّ طالبة عاديّة. وكذلك التقيت حينها بعدد من أولئك الطالبات اللاتي كنّ يُحاولنّ البحث عن طريقهنّ الخاصّ وسط متقلبات ومُتغيرات الحياة، فأن تكونَ شخصاً أعمى وأصمّ لا يمكنك أن تعرف الكثير من الحقائق، لكنّك تحاول القراءة والتأمّل والتساؤل من أجل أن تتمكّن من تلمّس طريقك الخاصّ والوصول إلى هدفك الذي ربّما ينكشف بعد مرور فترة من الوقت، يبحث خلاله المرء داخل ذاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد بدأت دراستي بقدرٍ من الحماس والنشاط والحيويّة، وكنت مُحاطة بعددٍ كبير من أولئك الطلّاب دائمي التحدّث عن سقراط وأفلاطون.

في ذلك المكان تحديداً، شهدت ذلك التطوّر الكبير، والتغيّر الشخصي الذي أثّر فيّ كلّياً، وقد أصبحت امرأةً أخرى بعد أن احتسيت نبيذ الروح، الذي يُعزف بترياق التعليم.

أخذت أتجوّل بين أحضان مكتباتِ الجامعة، ولقد استنشقت رحيق الكتب، فكانت تملؤني تلك الطاقة الهائلة برغبتي حقاً في امتصاص واستيعاب كلّ هذا القدر الكبير جداً من الكتب، لكن أوّل الصعوبات والتحدّيات التي واجهتني في ذلك الحين، هي قِلّة الكتب التي تمّ إعدادها وفق طريقة الأحرف البارزة حتّى يتمكّن المكفوفون من قراءتها على نحو سليم، إذ لم أجد إلّا عدداً قليلاً جداً من تلك الكتب التي تمّ إعدادها على هذا النحو، وكان على رأسها أعمال شكسبير ودانتي، لكن باقي الأعمال، سواء الأدبيّة أم الفلسفيّة أم التاريخيّة لم يتمّ إعدادها بطريقة الأحرف البارزة، ومن ثَمّ فقد عانيت من ذلك الأمر عندما توجّهت إلى مكتبة الجامعة، على الرّغم من أنّ الحماس كان يملأ روحي قبل اكتشاف تلك الحقيقة المُرّة.

فكّرت كثيراً فلم يكن هناك أيّ حل آخر سوى أن تقرأ لي معلّمتي الآنسة آن سوليفان تلك الكتب الأخرى التي لم يتمّ إعدادها بطريقة الأحرف البارزة. أخذت أصغي إليها بكلّ اهتمامٍ وانتباه. في الواقع، أنا شاكرة ومُمتنّة جداً لهذا الدور الذي لعبته آن سوليفان في حياتي، فلقد كانت حقاً شريكتي الودود، التي تقرأ لي كلّ تلك الكتب التي أتعطّش، صِدقاً، إلى قراءتها والاطّلاع عليها، وكانت أيضاً تسهر إلى جواري، في حين يكون الجميع نياماً. كانت تقرأ لي أهمّ الأعمال حتّى يمكننا المُضي قُدماً. ويمكنني القول أيضاً إنّ العديد من الأصدقاء كانوا يقترحون عليّ إعداد الكتب التي أرغب في قراءتها تحديداً بطريقة الأحرف البارزة، إذ كانوا يودّون فعلاً القيام بتلك الخدمة من أجلي، لكن كان يصعب عليّ حينها تحديد أهمّ الكتب الموجودة في مكتبة الجامعة، فكان هذا الأمر يعود إلى أساتذتي، لكنّهم، مع الأسف، لم يقدّموا لي يد العون في ذلك الأمر. لقد كانت مسألة الكتابة بالأحرف البارزة، المعروفة بطريقة

برايل، غير متوافرة لأيّ من الطلّاب المكفوفين إلّا بناءً على توجيهات وتعليمات خاصّة لبعض الطلّاب، فلم يكن الأمر متاحاً للجميع من قبل، كما الصورة التي بات عليها اليوم.

لقد كانت الآنسة آن سوليفان، معلّمتي العزيزة، تبذل قصارى جهدها من أجل مساعدتي في المُضيّ قدماً في دراستي وقراءاتي معاً، فلقد عكفت على قراءة الكتب لي، وكذلك كانت تقرأ لي محاضراتي الجامعيّة، وكانت تحاول أن تساعدني في فهم معاني الكلمات، حتّى إنّها كانت تقرأ لي باللاتينيّة والألمانيّة والفرنسيّة، وعلى الرّغم من أنّها لم تكن ضليعة بتلك اللغات الأجنبيّة إلّا أنّها حرصت على أن تتعلّمها من أجلي، وكانت تلجأ إلى قواميسها الأصليّة حتّى تتمكّن من ترجمة معانيها بطريقة جيّدة، ويمكنني القول إنّ مساعدتها الثمينة تلك قد مكّنتني من فهم كلّ تلك النصوص الأدبيّة والفلسفيّة، ولمّا جاء دور الشّعر وجدتني أذوب كُلّياً في جمالية التعابير والتصويرات والتشبيهات والمجاز. لقد أعجبتني قصائد شيلي وجون كيتس وبراونينج وورد ورث وغيرهم، فلقد كانت قصائدهم بمنزلة كنز لغويّ وتعبيريّ بالنسبة إليّ.

كان لاكتشاف كتابات الأدباء والشعراء السابقين أكبر أثر في عقلي وروحي، فلقد شعرت بتحرّر أكبر عندما انغمست في تلك الأعمال الأدبيّة والشعريّة المدهشة. لقد امتصّت حواسي رائحة النصوص، وتخيّلت ما وراء الكواليس في أثناء كتابة تلك الأعمال الخالدة، وأحسست وكأنّ نسيمها يُداعب وجنتيّ، وكأنّ بريقها يُشرق في نفسي، فلقد ألقيت بنفسي بين حروفها، وأقسمت إنّي لا أريد العودة مُجدّداً، لقد أردت حقاً أن أضيع روحاً وجسداً وسط تلك الكنوز التي تركت آثارها وانطباعاتها فيّ.

لقد غيّرت شخصيتي كلّ تلك الكتب التي طالعتها، وحينها زرعت في نفسي آمالاً جديدة، وجعلتني أُدرك آفاقاً وأبعاداً أخرى للحياة، وتنفّست شجاعة أبطالها، وتأمّلت أوصاف تلك الطبيعة التي استخدمها الشُعراء والأدباء، وباتت تُشكّل مصدر ثراء وإلهام لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من وجهة نظري، قراءة التاريخ لم تعنِ الإعجاب بما قام به الإسكندر أو سيزار أو نابليون، لكن ما كان يعنيني حقاً في أثناء قراءة التاريخ هو تأمُّل تلك السير الذاتيَّة المُلهمة للشُّعراء والأدباء والشخصيَّات النسائيَّة القويَّة المؤثِّرة، ويمكنني القول إنَّه لم يكن يعنيني دراسة وتأمُّل تاريخ رجال السياسة والحُكم بقدر ما كان يعنيني تأمُّل ودراسة حيوات أهل الآداب والفنون على مرِّ التاريخ الطويل، وكذلك التجارب الإنسانيَّة المُلهمة، وتحديداً التجارب النسائيَّة منها. لقد ساعدتني حياة أولئك الأدباء والفلاسفة في استكشاف ذلك الظلام الدامس الذي أعيش فيه، ولقد مكَّنتني من إكسابه الصوت واللون والرائحة.

لقد مكَّنتني دراسة الفلسفة من الشعور بالسعادة الأكيدة الحقيقيَّة، فلقد أدركت أنَّ كلَّ تلك السنوات الصعبة التي شهدت مزيداً من التحدِّيات في حياتي الخاصَّة، كانت تستحقُّ فعلاً أن أخوض تجربة المغامرة تلك.

لقد علَّمتني الفلسفة كيف تُزهِر النفس بعد الأزمات والآلام، وحينها بدأت أستنشق ذلك الهواء الربيعيَّ الذي جعلني أشعر بالقوة وبالحياة مُجدَّداً، وبعد كلِّ تلك الصعاب التي تحمَّلتها، وبعد اختبار كلِّ هذا اليأس الذي جعلني أشعر بالهشاشة والضعف في فترات حياتي الأولى، ها إنَّني الآن أكتب مذكَّرات مرحلة متأخِّرة من حياتي، والتي أصبحت فيها قادرة على تمييز الأشياء، ويمكنني الاعتراف أنَّني كنت مخطئة تماماً بشأن حزني ويأسي السابقين.

لقد أسهمت كتابات سقراط في بناء عقلي وتكوينه، إذ شكَّلت كتاباته تلك الرؤى والأفكار المُتحرِّرة التي أدركتها بعد تأمُّل فلسفته الخاصَّة وحكمته، فلقد ناقش ذلك الفيلسوف المُدهش الموضوعات الإنسانية بمجملها، التي تشغل البشر، وكان على رأسها المعرفة والصداقة والأخلاق، لقد ناقش كلَّ ذلك، وتمكَّن من الكشف عن فلسفته الخاصَّة في كلِّ أمرٍ من تلك الأمور.

لقد علَّمني أفلاطون فضيلة الصمت والسلام الداخلي، وكيفيَّة الاعتناء بذلك الكون الذي أحمله في داخلي، وأنَّ هذا هو أساس الإدراك والتفكير، وليس المهمّ هو العالم الخارجيّ بكلِّ تغيُّراته وتطوُّراته. لقد علَّمتني فلسفته أيضاً أنَّ إعاقتي السمعيَّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والبصريّة لا تُشكّل ضرورة حقيقيّة لوجودي.

لقد ساعدتني فلسفة كانط وإيمرسون في أن أمضي على الطريق الصحيح العمليّ لاكتشاف عالم الموسيقا، وعالم الجمال، وتأثيراتهما في روحي. كنت في السابق أظنّ أنّني إنسان مُجرّد، لكن مع اكتسابي لتلك الخبرات الكبيرة، واطلاعي على كلّ هذه الكتب والمجلّدات الأدبيّة والفلسفيّة وغيرها من الفنون والآداب، تمكّنت من الإحساس بذلك النور الذي يملأ وجداني من الداخل، والذي يقودني إلى الإيمان بأشياء أخرى لم يكن بإمكاني تعرّفها من قبل، ففي السابق، مثلاً، كنت أتساءل إن كان في مقدور أصدقائي وزملائي فهمي على نحوٍ سليم؟ هل يفهمون حقاً ما الذي أعنيه؟ هل توجد بيننا لغة تواصل مُشتركة أو أنّهم يعتقدون أنّني غريبة بالنسبة إليهم؟ في الواقع، لقد أسهمت دراسة الأدب والفلسفة في إضفاء الجوانب الشعوريّة على روحي، فبات ثمّة معنى لتلك المشاعر والأحاسيس، أمّا في بداية المطاف، فكانت حواسي محدودة، وكانت تعبيراتي قاصرة، فالقراءة والمطالعة والاختلاط بالثقافات والفنون والآداب والفلسفة، قادرة على جعل المرء إنساناً مبدعاً مُتحرّراً من كلّ القيود والأغلال التي تجعل من نظرته إلى الوجود محدودة.

لقد مكّنتني الفلسفة حقاً من التحرّر من كلّ تلك المخاوف وأوجه القصور؛ فمثلاً، لاحقاً لمّا هاجمني عدد من النقّاد، عندما بدأت في إصدار مؤلّفاتي الخاصّة، قال أحدهم: لكن، كيف يمكنها أن تكتب عن الحياة وهي لا تعرفها؟! وهناك من انتقدني أيضاً، قائلاً: وكيف يُفترض بشخص طبيعي عاديّ أن يأخذ نصيحته الحياتيّة منها؟ وقال ناقد آخر مُهاجماً كتاباتي: بأيّ حقّ تكتب هيلين كيلر عن المناظر الطبيعيّة الخلّابة وهي لم تزها من قبل؟! وغيرها من الأسئلة الأخرى التي أظهرت مدى ضآلة عقولهم وعدم قدرتهم على استيعاب حقيقة أنّ السّمع والبصر لا يُمثّلان الوجود بأسره.

لم أكن مُقرّبة من أساتذتي في الجامعة، إذ إنّه، وعلى الرّغم من أنّ غرفهم كانت بالقرب من غرفتي الدراسيّة، إلّا أنّه لم يحاول قطّ أيّ من أساتذتي الاقتراب من تلك الطالبة العمياء الصمّاء التي تُدعى «هيلين كيلر»، في حين كانت علاقتي بزملائي

في الصف طيّبة، ولم تكن مثاليّة لكنّها كانت جيّدة على نحوٍ عامّ. ومازلت أذكر أنّ إحدى زميلاتي في الفصل الدراسي كانت قد تعلّمت في فترة لاحقة الكتابة بطريقة برايل، ولـمّا نجحت في ذلك، كتبت لأجلي إحدى الروايات الكلاسيكيّة القديمة بتلك الطريقة، وأهدتها إليّ. وعلى الرّغم من أنّي لم أتقِ بها مُجدّداً بعد تلك المرّة، إلّا أنّني مازلت أُقدّر لها صنيعها حتّى اليوم.

لاحقاً، سافرت إلى كامبريدج برفقة معلّمتي آن سوليفان وعدد من زملائي وأساتذتي، وهناك تعرّفنا إلى عدد من الأساتذة البارعين أيضاً، الذين درسوا في جامعة هارفارد، وأخذنا نتناقش معاً بشأن تلك الخبرات العلميّة المُشتركة، ولاحقاً ذهبنا معاً لتنفّس الهواء العليل، ولتأمّل المشاهد الخلّابة الطبيعيّة، هناك حيث تعزف الطبيعة موسيقاها في أذن الروح.

امتطينا الأحصنة معاً، وتجوّلنا وسط الحقول الخضر، ووسط بساتين التفّاح، وهناك تعرّفنا إلى عدد من أبرز الشخصيّات الفكريّة والعلميّة، وكذلك أيضاً تعرّفنا إلى السيّد جون ماسي، الذي تزوّج معلّمتي لاحقاً، وبات صديقاً عزيزاً جدّاً.

في الشتاءات الطويلة، كنّا نجلس معاً حول النار ونتأمّل كلّ ما نعرفه سويّة، وكنّا نُناقش كلّ ما قرأناه في الأعمال الأدبيّة والفلسفيّة والتاريخيّة والفكريّة المختلفة. كنّا نتناقش معاً في كلّ شيء، وقد كان كلّ منّا مُحبّاً للفهم والعلم والمناقشة. لقد كان كلّ منّا واعياً الكون من حوله، ولكلّ منّا فلسفته في الحياة، ولكلّ منّا قدوته الخاصّة، وعلى رأس تلك الأسماء البارزة التي شكّلت قدوة حقيقيّة مُلهمة بالنسبة إلينا، نيتشه، شوبنهاور، وايزمان، كارل ماركس، تولستوي، بريجسون وماكس سترينر. لقد آمنّا حقّاً بقوّة الضوء المُنبعث من الفهم والمعرفة، وآمنّا بأهميّة السلام والأخوّة والمواطنة والعدالة والمساواة فيما بيننا.

لقد ساعدتنا تلك الحلقات الفكريّة والثقافيّة في أن نسمو ونرتقي عن هذا العالم المادي، ومن ثمّ فقد نجحنا في اختبار تجارب روحانيّة لم نشهدها من قبل، إذ إنّ الأفكار في حدّ ذاتها هي التي تقودنا في اتجاه عجلة التقدّم والتطوّر، وليس الامتثال للعالم المادي، والوقوف مُكبّلي الأيدي عاجزين عن الارتقاء والتحليق بعيداً لتأمّل

ممسوحة ضوئيا ب CamScanner

واستكشاف الأمور والتساؤل كثيراً بشأن طبيعتها وحقيقتها.

كم أفتقد أيام الشباب تلك عندما كنّا نجتمع معاً في الحدائق، ونستمرّ في مناقشاتنا في مختلف القضايا والأمور! آه كم كنّا سعداء حقاً! وكم كانت أيامنا جميلة ومشرقة! لقد آمنّا أنّ الطريق إلى الديمقراطيّة لن يتأتّى إلّا ببذل تلك الجهود الكبيرة الصادقة. لقد صدّقنا أنّ العالم لن يصبح مكاناً أفضل إلّا إذا عملنا على تطوير سلوكاتنا وعقلياتنا على نحوٍ مُتحضّر.

لمّا جرى تكريمي في كامبريدج، كتبت صحيفة ما خبراً عن ذلك الأمر، لكنّني عندما قرأت ذلك المقال، فوجئت بتلك الحالة من الادّعاء والمُبالغة الواضحة، إذ إنّهم كتبوا جزءاً من المقال يُشيد بالدور الذي قامت به الآنسة سوليفان، معلّمتي العزيزة، وهذا الجزء من المقال حقيقيّ وصادق فعلاً، فلولا الدور العظيم الكريم الذي قامت به الآنسة سوليفان معي خلال رحلتي كلّها لَما كان ثمّة وجود حقيقيّ لامرأة اسمها «هيلين كيلر»، لكنّ الجزء الآخر في المقال شهد مجموعة ادّعاءات ومُبالغات، ذكروا خلالها أنّي قد تلقّيت تشجيعاً كبيراً من أساتذتي، لكنّ هذا الأمر لم يحدث قطّ، فأساتذتي لم تربطهم بي أيّ صِلَة قريبة، أو يمكنني القول إنّ معظمهم لم يدعمني بشكلٍ فعليّ، وعلى الرّغم من ذلك، فقد حاولت أن أتغلّب على كلّ تلك التحدّيات الحقيقيّة في التعليم بمساعدة معلّمتي السيّدة سوليفان. كذلك قد أشارت الجريدة، سابقة الذكر، إلى أنّه في تلك اللحظة التي حصلت فيها على شهادتي الأكاديميّة، قد تسابقت الأيادي في أثناء التصفيق، وكانت حرارة وحفاوة ذلك الترحيب أشبه بصوت الرعد، نظراً لقوّته، وفي الواقع، هذا الأمر أيضاً لم يحدث، إذ لَمّا حصلت على شهادتي الأكاديميّة لم يُحيّني الجمهور من السادة الحضور بتلك الطريقة بل حدث ذلك بطريقة فاترة عاديّة جداً، حالي كحال أيّ طالبة تتخرّج في الجامعة.

لقد قضيت أياماً رائعة بعد التخرّج برفقة أصدقائي والآنسة سوليفان، وكنّا نستمتع معاً بالتجوّل بين الحدائق والغابات، ونمشي بالقرب من أشجار التفّاح، وكانت رائحتها تسكن أنوفنا، وكذلك كنّا نضحك ونمزح مع بعضنا بعضاً، وكنت أدقّ الأرض بقدمي بلُطف وكأنّي أداعبها، فلقد شعرت كلّياً بمدى رهافة الطبيعة وشاعريتها،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وعلى الرّغم من إعاقتي البصريّة والسمعيّة إلّا أنّ إحساسي بالطبيعة حينها، وكذلك قراءاتي وتأمّلاتي التي تشمل تلك الأوصاف الدقيقة التي قد استخدمها الأدباء والشعراء العظماء على مرّ التاريخ لوصف الطبيعة، كلّ ذلك جعلني أشعر بكلّ شيء، بدءاً من تلك الحقول المُمتدّة الحنون، إلى تلك الطيور التي تقف في شاعريّة على أغصان الأشجار، وتلك الأرض الطيّبة.

بعد عودتنا من كامبريدج، عشت حياتي في منزل ريفي في أحضان الطبيعة، مُزوّد بمزرعة، وقد اعتدت أن أوجد إلى جوار أسرتي وبعض الحيوانات والطيور، حاولت في أوّل المطاف اقتناء وتربية بعض الطيور، وبالفعل، تعوّدت كلّ يوم إطعام الدّجاج، إلّا أنّني لاحقاً اكتشفت أنّني كدت أتسبّب في إلحاق الضرر بها، لأنّني كنت أضع لها كميّات طعام أكبر بكثير من حاجتها، ومن ثمّ فقد عزفت على الفور عن تربية الدجاج، ولجأت إلى تربية الكلاب، وكان أوّل كلب أقوم بتربيته يدعى فيسي، وقد وافته المنيّة بعد أشهر قليلة، وحينها دفنّاه إلى جوار إحدى أشجار الصنوبر في حديقة منزلنا، وحزنت كثيراً لموته، وتأثّرت بتلك الواقعة لفترة طويلة، حتّى قرّرت أنّني لن أعمد إلى تربية كلب آخر مرّة ثانية، لكن هذا لم يحدث، فبعد مرور فترة من الوقت أهداني أحد الأصدقاء كلبة لديها ثلاثة عشر جرواً صغيراً، وحينها كانت سعادتي لا توصف، فلم أكن أعرف حقاً أنّني أجيد التعامل مع الكلاب بكلّ يُسر وسهولة، وقد شعرت بمدى الحساسية المُفرطة التي تتميّز بها تلك الجراء الصغيرة، وكأنّها أشبه بحساسية الموسيقيين والشّعراء.

لا يمكنني أبداً أن أنسى أوّل مرّة في حياتي التقيت فيها الكاتب الكبير الشهير السيّد مارك توين! لقد كنت حينها أبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وقد جاء السيّد مارك توين برفقة المخترع الكبير ألكسندر بيل، وحينها تعرّفت إليه للمرّة الأولى، وقد وجدته رجلاً طيّباً لطيفاً ساخراً ذا حسّ فُكاهي للغاية، ولقد أسعدني حقاً بحكاياته وقصصه الساخرة البديعة، وجعلني أضحك من أعماق قلبي، وشدّ على يدي، وشجّعني على المُضيّ قُدماً في رحلتي تلك، وقال لي إنّه يعدّني فتاة مُلهمة، وإنّه قد تابع قصّتي منذ البداية وعرف كيف خسرت السّمع والبصر، وأخبرني أنّ قصّتي تلك قد أثارت اهتمامه بشدّة، وأنّه كتب مقالات عدّة تعقيباً على حالتي تلك، وعلى

إصراري وكيفيّة تجاوزي لتلك التحدّيات والأزمات.

لقد أبهجني ذلك جداً، وأشعرني بالفخر والسعادة، فها هو ذا أحد أبرز كُتّابي المفضّلين يعدُّني فتاة مُلهِمة! لقد زادت كلماته التشجيعيّة من إصراري، وزادت من رغبتي في تحقيق المزيد والمزيد في حياتي العمليّة والإنسانيّة. ويمكنني القول أيضاً إنّ الكاتب الكبير السيّد مارك توين لم يقل لي يوماً أيّ شيء جارح من شأنه أن يجعلني أشعر بالخجل بخصوص إعاقتي، بل على النقيض، فإنّه لم يتفوّه بحرف عن ذلك، حتّى إنّه ردّ على أحدهم، الذي كتب ساخراً يوماً يقول إنّه لأمر مُمِلّ حقاً أن يرى المرء منّا ذلك الليل الدامس الذي لا ينجلي يوماً وراء الآخر، وحينها ردّ عليه الكاتب مارك توين، وقال:

«إنّ الظلام الدامس هو أمر مُثير حقاً، فحينما يُغلِق الإنسان عينيه ولا يرى شيئاً، أو حينما يدخل غرفة شديدة الظلام، فإنّه حينها يفقد قدرته المحدودة، وهي (الإبصار)، وحينها يعتمد على قوى أخرى غير محدودة، وهي (البصيرة) حتّى يتمكّن من استكشاف طريقه بنفسه، فهذا التحدّي في حدّ ذاته أمرٌ مُثيرٌ، ومغامرة جريئة».

كان الكاتب مارك توين حريصاً طيلة الوقت على مُحاربة الظلم وصور الإجحاف، وغياب العدالة. لقد كان يبذل قصارى جهده من أجل القضاء على كلّ أشكال الاضطهاد والعنصريّة، وكذلك كان يسافر إلى مختلف دول العالم بدعوة من أفرادها حتّى يناقش معهم ضدّ القضايا، ويبحث عن حقوق فاعلة لها، فهو كان شديد الإيمان بأنّه يتعيّن على المرء أن يكون له دور مؤثّر على الصعيد الإنساني في أنحاء العالم قاطبةً، فدول العالم كلّها يتأثّر بعضها ببعض، وعليه ينبغي لنا أن نقوم بشيء يستحقّ أن نعيش من أجله، وقد تعلّمت أنا الأخرى تلك الفلسفة الحياتيّة تأثراً بكلمات مارك توين، الذي اعتدت الاستماع إلى آرائه ونقاشاته ونصائحه منذ سِنّ صغيرة، وكنت أستمع إلى كلّ حرف يقوله بكلّ التقدير والاهتمام والحبّ.

كان السيّد مارك توين يُعرِّف نفسه دائماً بأنّه كاتب ساخر، لكن في حقيقة الأمر لم يكن يمارس ذلك النوع من الكتابة الساخرة المُهينة التي تتقصّد جرح أو إيذاء شخص ما، أو السخرية منه، لكنّه كان إنساناً شديد الطيبة، وكان يحنو على الآخرين

ويدعمهم ويساندهم بشتى الطرائق، ولقد رأيت ذلك بنفسي، فالسيّد مارك توين كان يعرفني جيّداً، وقد حرص كلّ الحرص على دراسة حالتي من حيث تأمّل أبعادها المختلفة من كلّ الزوايا، فقد كان يُتابع تطوّرات وضعي، وكان يُشجّعني على المُضيّ قدماً، إذ كان يرى أنّني مصدر إلهام للآخرين من حولي من أصحاب الإعاقات الذين يظنّون عبثاً أنّ إعاقاتهم تلك قد تتسبّب في تكبيلهم ومنعهم من تحقيق أغراضهم في الحياة، وكان يقول لي:

«أتعرفين يا هيلين أنّ هناك كثير من البشر المُبصرين حولنا، والذين لا يملكون القدرة الحقيقيّة على الرؤية؟»

لقد كان يُساندني بكلّ الطرائق، ويُخبرني على الدوام أنّي أملك مواهب وقدرات عدّة، وأنّي قد تفوّقت بوضعي الراهن ذاك على آخرين لديهم كلّ تلك الإمكانات والقدرات الماديّة التي حُرِمتُ منها.

لقد كان السيّد مارك توين مُهتماً بكلّ شيء حولي بدءاً من أصدقائي والمغامرات التي قمت بها في أيام حياتي، وكذلك طبيعة ونوعيّة كتاباتي وأسلوبي الأدبيّ، وإلى أيّ مدرسة ينتمي؟ لقد أحببت أيضاً تقديره الكبير لذلك الجهد الهائل الذي بذلته معلّمتي العزيزة خلال رحلتنا معاً في استكشاف العالم وقراءته على نحوٍ أفضل.

لقد قال إنّ الآنسة سوليفان تمتاز بقدرٍ رفيع من الحكمة والمحبّة والنور والقوّة، وأشاد بكلّ ما فعلته لأجل مساعدتي في الوصول إلى تلك المكانة التي حظيت بها في فترة لاحقة.

لقد كان السيّد مارك توين مُمثّلاً حقيقياً عن روعة كلّ هذا الأدب الأمريكيّ، والكتابة الساخرة الإبداعيّة الذكيّة، ولقد أُعجبت حقاً بكتاباته كلّها، وأحسست بمدى إبداعه وعظمته.

لقد دعانا إلى منزله الذي كان يُشبه قرية إيطاليّة الشكل، وهناك ناقشني في أحد أبرز تلك الكتب التي ألّفها، وكذلك أيضاً تحدّثنا ملياً عن عبقريّة شكسبير، وأخذ يُحدّثني عن ولعه بتلك الشخصيّة المُبهرة، وكذلك عن إيمانه العميق بأنّ شكسبير هو

أيقونة الأدب الإنجليزيّ بصفة عامّة، وأنّه سيظلّ هكذا على مرّ التاريخ.

لقد أخذ يُحدّثني عن مكان نشأته الخاصّ، وقال إنّ هذا المكان الطبيعيّ الساحر لا يزال يُمثّل جنّته في الأرض، وقال لي إنّه يعكف على تأمّل مناظره الطبيعيّة من كلّ الزوايا، وبدأ يصف لي تلك المشاهد بلغة أدبيّة غنيّة شاعريّة الإيقاع، وكذلك أخذني بالقرب من أشجار التفّاح، وراح يُحدّثني عن نظرته إلى الحياة وفلسفته الخاصّة في كلّ شيء من حوله.

كانت الكتابة هي ملجئي الوحيد، وكنت أقضي ساعات الليل والنهار وأنا أكتب وأكتب وأكتب بشكلٍ محموم، ومن دون توقّف، وقد حرصت على استخدام الكتابة وسيلةً تساعدني في تحديد هدفي في الحياة، فمنذ تلك اللّحظة التي كنت فيها طالبة في الجامعة، وكنت أفكّر ملياً كيف يمكنني استخدام التعليم الذي تلقّيته بشكلٍ فاعل في مجال من مجالات الحياة التي تساعدني في تنفيذ ما أردته حقاً.

قبل ذهابي إلى الجامعة، كانت معلّمتي العزيزة الآنسة آن سوليفان قد نصحتني بالدراسة في بيئة طبيعيّة يوجد فيها عدد من الأشخاص العاديين، لأنّها كانت تؤمن في قرارة نفسها أنّ الشخص المُعاق يجب أن يوجد في بيئة طبيعيّة ليتمكّن من التطوّر على نحوٍ سليم، وليتمكّن أيضاً من تجاوز حدود إعاقته، فلا يمكن أبداً لأحد أصحاب الإعاقة أن يتجاوز مسألة إعاقته تلك من خلال وجوده مع مجموعة من المُعاقين في غرفة واحدة، ولقد أحببت حقاً فكرة أن أكون موجودة في الجامعة وسط تلك الأجواء العاديّة الطبيعيّة، لأنّني كنت أؤمن أنا الأخرى بتلك الفكرة، وأردت تحقيقها من صميم قلبي، فقد كنت شديدة الحماسة لأن أتجاوز ما أنا فيه، لأنّي كنت أؤمن بقدرتي على تجاوز الصعاب والوصول إلى مرحلة أخرى من التعافي والمُضيّ قدماً. لكن، في بداية المطاف، كانت ثمّة صعوبات مختلفة وتحدّيات واضحة، فعندما ذهبت إلى الجامعة، بادئ الأمر، لاحظت هروب العديد من الطالبات العاديّات من أيّ مشروع مُشترك قد يجمع بيننا، واعتذارهنّ الواحدة تلو الأخرى، وحينها أدركت أنّه ربّما لا ترغب أولئك الطالبات العاديّات في التعاون في مشروع بحثيّ واحد مع فتاة صاحبة إعاقة سمعيّة وبصريّة، وربّما لم تكن لديهنّ الرغبة في تحقيق ذلك الأمر.

وكذلك، ربّما لم يكنّ شديدات الثقة بجدوى ما ستقوم به تلك الفتاة العمياء الصمّاء!

في الواقع، لقد واجهت مشكلات وتحدّيات مُشابهة من ذلك النوع في بداية المطاف، ولاحقاً تمكّنت من تفهُّم كلّ ذلك، وتالياً، حاولت جاهدةً أن أتجاوزها شيئاً فشيئاً، وبعد مرور فترة من الوقت تمكّنت فعلاً من العمل على مشروعي البحثيّ الخاص، ومن ثَمّ فقد تمكّنت من تمويل ذلك المشروع مادياً عبر مجموعة من الأصدقاء الذين أمتنّ لهم حقاً كلّ الامتنان.

بدأت لاحقاً في دراسة «العمى» ومعرفة مُسبّباته، بشكل علميّ دقيق، وحاولت أن أفكّر في ذلك الدور الذي يمكنني أداؤه في تلك المرحلة من حياتي المُبكرة، وقد دُعيت بعد مرور فترة قصيرة من الزمن فيما بَعد، إلى السفر من أجل لقاء أحد الأشخاص البارزين في المجتمع الإنجليزيّ، وكان والده أيضاً كفيفاً، ومن ثَمّ فقد ساعده ذلك في أن يعرض عليّ العمل معه في لجنة اتحاد التعليم والصناعات، وتالياً، أمكننا من خلال ذلك الدور أن نقدّم مساعدات لأولئك الأشخاص المكفوفين من خلال تعليمهم مهارات تخص كيفيّة البيع، وكيفيّة التصنيع من منازلهم، وبعد ذلك افتتحت اللجنة الصناعيّة التعليميّة عدداً من المحالّ التجاريّة في أماكن مختلفة من الولاية، ولقد حاولت اللجنة أيضاً أن توفّر للأشخاص المكفوفين الكثير والكثير من المساعدات والإمدادات، فلم يكن هناك من قبل أيّ مؤسّسة تدعم المكفوفين، ولم تكن هناك أيّ جهة توفّر لهم خدمات مجانيّة، حتى إنّه لم يكن هناك مكتب خاص بتقديم خدمات البحث العلميّ لهم. كذلك، كانت الكتب المتوافرة بطريقة الأحرف البارزة قليلة ومحدودة جداً، وكانت باهظة الثمن بحيث لم يكن في مقدور الأشخاص المكفوفين دفع تكلفتها.

كانت هناك أيضاً مشكلات فادحة فيما يخص الكتابة لهؤلاء الأشخاص، وكذلك فيما يخص قاعات الأدب والموسيقا، وعلى الرّغم من أنّه لاحقاً قد انتشرت طريقة برايل بشكل كبير في أنحاء العالم كافّة لمُساعدة المكفوفين في القراءة والتواصل، التي اخترعها لويس برايل، وقد سُمّيت بطريقة برايل تيمناً باسم ذلك المُخترع المُدهش الذي تمكّن من اختراع تلك الطريقة لتكون الطريقة الأساسيّة للتواصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين المكفوفين، وتمكّنهم من القراءة ومطالعة الكتب في مختلف مجالات الحياة المتعدّدة، ولقد خسر لويس برايل بصره وهو في الثالثة من العمر بعد أن تعرّض لحادثة في ورشة والده خلال تلاعبه بمثقاب والده، لكنّه حينما تعرّض لذلك لم يفقد الأمل، وقد واصل المشي بمساعدة عصا والده، ثمّ فكّر لاحقاً في اختراع طريقة خاصّة تُمكّنه من القراءة والاطّلاع، بمساعدة زملائه من المكفوفين أيضاً، وبالفعل فقد تمكّن لويس من اختراع طريقة برايل، وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، بعد أن التحق بمعهد الشباب الوطني، وقد لاحظ أساتذته مدى ذكائه واجتهاده، وبالفعل قد تمكّن من تحقيق حلمه ومساعدة العالم أجمع بتلك الطريقة. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ بعض مؤسّسات الطباعة والنشر الشهيرة في الولايات المتحدة الأمريكيّة قد رفضت طباعة المزيد من الكتب والمؤلفات المختلفة بطريقة برايل، ما شكّل تحدّياً حقيقياً ملموساً أمام المكفوفين في المجتمع.

بدأت تدريجياً في تعلّم اللغات الأخرى، ولَـمّا بدأت مُعلّمة اللغات تُجرّبني في نطق أحرف اللغة الألمانيّة والفرنسيّة، دهشت تماماً عندما وجدتني أنطقها نطقاً سليماً، ولقد اجتهدت كثيراً، وحاولت وفشلت، ثمّ نجحت في نهاية المطاف، وتمكّنت حقاً من نُطق الكلمات والعبارات بطريقةٍ ممتازة احترافيّة، وهذا في حدّ ذاته أذهل أساتذتي، وجعلهم يشعرون بالفخر الكبير. لقد ذاع صيتي حينها، وتلقّيت المزيد من الدعوات في وقتٍ لاحق حتّى أقوم بإلقاء محاضراتٍ مختلفة في جامعات ومعاهد مختلفة، ومن ثمّ نجحت في أن أكون واحدة من أشهر المحاضرات في العالم، وأصبح صوتي مُميّزاً بين الجميع، وتمكّنت من نشر رسالتي وأداء دوري من خلال ذلك.

لقد كانت تجربة إلقاء المحاضرات والخُطب تحدّياً كبيراً لي، فتلك المسألة هي أمر صعب للغاية بالنسبة إلى أولئك الأشخاص من أصحاب الإعاقة السمعيّة، وكذلك تعدُّ أمراً مأساوياً مُضاعِفاً لأولئك من أصحاب الإعاقة البصريّة من المكفوفين، فما حدث حقاً كان يُشكّل عبئاً ملموساً على كاهلي لفتراتٍ من الزمن حتّى تمكّنت في نهاية المطاف من فعلها بكلّ سهولة ويُسر، عندما تمكّنت من نُطق الكلمات بشكلٍ جيّد، وكذلك عندما كان وقعها على مسامع الآخرين جيّداً، فلقد تعاملت مع الموقف بكلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صدق وتلقائيّة، وتالياً، نجحت في القيام به على النحو الصحيح.

مازلت أذكر أنّي عندما كنت في العاشرة من عمري، أخذتني معلّمتي العزيزة، الآنسة آن سوليفان، من يدي، وذهبنا معاً إلى إحدى مُعلّمات فنّ الخطابة والحديث، وفي تلك المرحلة لم أكن أنطق سوى بعض كلمات غير واضحة مُبهمة، وكانت أقرب إلى الأصوات الغوغائيّة المُزعجة، وحينها وضعت تلك المعلّمة يدي على وجهها في أثناء حديثها ونطقها للكلمات حتّى يمكنني حينها أن أشعر بذلك الاهتزاز الناجم عن نطقها للكلمات، ولاحقاً استطعت بالفعل نُطق تلك الكلمات وتقليد الأصوات عبر تلك التقنية باستمرار.

لَمّا بدأت في تعلّم نُطق مجموعة من الكلمات، نجحت بعد ذلك في تكوين تلك العبارة وترديدها، التي تقول «أنا لست غبيّة بعد الآن»، وكنت أتحدّث في بادئ الأمر بإيقاع سريع جداً، وبخشونة واضحة، لكن شيئاً فشيئاً بدأت أتحدّث بإيقاع أبطأ قليلاً، وبمرونة ونعومة.

لاحقاً، بدأت آخذ بعض الدروس في التخاطب والتحدّث وقراءة الشفاه، وقد ساعدتني الآنسة آن سوليفان في تطوير لغتي وكيفيّة نُطقي لتلك الكلمات والأحرف، وتكرار ذلك مراراً، ولقد استغرق ذلك الأمر منّي سنوات طوال حتّى أتمكّن لاحقاً من الوقوف والتحدّث أمام الجمهور العامّ.

في أوّل لقاء عامّ لي أمام الجمهور، كنت في شدّة التوتّر والقلق والارتياب، وعلى الرّغم من أنّي امرأة عمياء صمّاء إلّا أنّي كنت أرتجف من دون توقُّف، ولقد خشيت هول ذلك اللقاء، لكنّي بدأت أتحدّث بصوتٍ مرتفع، وعكفت على مناقشة كلّ تلك الموضوعات التي تشغلني، والتي تتعلّق بأولئك المكفوفين، فحاولت أن يكون حديثي صادقاً وتلقائياً، وحاولت أن أكشف عن كلّ ما يُزعجنا كمجتمع للمكفوفين، حاولت أن أشارك الآخرين آلامنا وأوجاعنا، وأردت أن أجعلهم على عِلم بما يحدث داخل ذلك العالم المُظلِم، أردت أن أكشف لهم عن تلك المُعاناة المستمرّة التي لا يعرفها إلّا مَن عاشها، وحاولت أن أتحدّث بصدق وشفافية، ووجدتني في نهاية المطاف أتحوّل إلى تلك المرأة التي تتحدّث نيابةً عن أصحاب الإعاقة السمعيّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والبصريّة، فلقد حرصت محاضراتي على فتح آفاق جديدة للمكفوفين حول العالم، وحاولت أن أطلب أن تتكاتف قوى المجتمع بأسرها من أجل توفير الإمدادات والمساعدات الكافية لهم، وشرحت بشكلٍ تفصيليّ دقيق أوجه القصور التي تُعانيها مجتمعاتنا.

لقد اعتدت أن ألقي محاضراتي بشكلٍ موسمي، وقد استمرّت الحال على هذا النحو حتّى بات ذلك الجمهور الذي يحضر ليشهد تلك المحاضرات من الفقراء والشبّان والمكفوفين والصّمّ وأصحاب الإعاقات المختلفة.

لقد جاؤوا جميعهم ليستمعوا إلى ما تقوله تلك الفتاة العمياء الصمّاء التي استطاعت تجاوز حدود إعاقتها، وتمكّنت من قيادة المزيد من أصحاب الإعاقات في العالم إلى طريق النور. لقد شعرت بالاعتزاز والفخر في تلك اللحظات التي كانت فيها الحشود تجتمع حولي في إصرارٍ واضح من أجل الحصول على المعلومة أو الاستماع إلى النصيحة أو عرض اقتراحٍ ما يمكننا استخدامه من أجل المُضيّ قدماً في طريق نهوضنا وتطوّرنا، حتّى يصبح عالمنا أفضل، وحتّى نستطيع حقاً وحرفيّاً قهر ذلك الظلام، ولنرتمي بكامل إرادتنا ووعينا في أحضان النور الأبديّ الذي لا يخبو.

لقد مرّرت أصابعي على فم معلّمتي العزيزة آن سوليفان خلال محاضراتي العامّة تلك لأريهم كيف في مقدوري قراءة كلماتها على هذا النحو منذ أن كنت طفلة صغيرة جداً، ولقد أخبرني الأصدقاء عن مقدار الحفاوة التي استقبل بها الجمهور العريض كلمتي ومحاضراتي.

كان قد جرى تقديمي للجمهور العامّ، للمرّة الأولى، عن طريق المخترع الشهير السيّد ألكسندر غراهام بيل، ويمكنني القول إنّها بالطبع ليست المرّة الأولى التي ألتقي فيها السيّد غراهام بيل، لأنّه كان يُتابعني منذ أن كنت طفلة صغيرة، وكان يعرف تطوّر وضعي بصورة مُستمرّة، وكذلك هو أوّل مَن اهتمّ بعرضي على أساتذة تخاطبٍ وصمّ، واستطاع أن يرشد أسرتي إلى كيفيّة التوجّه السليم، الذي في إثره أصبحت ما أنا عليه الآن.

في الواقع، إنّي حقاً أحسب نفسي امرأة محظوظة جداً، لأنّي قد تعرّفت إلى السيّد

CamScanner الممسوحة ضوئياً بـ

ألكسندر غراهام بيل شخصياً، فالجميع يعرف أنّه مُخترع الهاتف، لكنّني قد عرفته في الحقيقة، وأفتخر به جداً بسبب اختراعاته العظيمة، وكذلك أيضاً بسبب صداقته الكريمة التي تجعلني أشعر بالامتنان الشديد. لقد كان دائم الدعم والنُّصح لي في كلّ مرّة كنت أطلب فيها نصيحته وإرشاده لي في مشكلةٍ ما من مشكلات حياتي الخاصّة.

لقد تعرّفت أيضاً إلى أسرة السيّد ألكسندر غراهام بيل، وزرت أمّه وأباه، وقد كانا في غاية الودّ واللُّطف، فأحببتهما جداً، إذ كانت أمُّه أيضاً من ضِعاف السّمع، وكان السيّد ألكسندر ودوداً معها، وحنوناً للغاية. لقد اعتدت المرور على منزلهم في كثير من الأحيان لأحضر إليهم بعض الزهور، ولم تكن أمّه الطيّبة تملُّ البتّة من قراءة شفاهنا جميعاً بكلّ صبر. كانت تجلس على كرسيّ مُتحرّك إلى جوار زوجها العجوز الطيّب، الذي كان هو الآخر مخترعاً كابنه، لكنّ السيّد ألكسندر استطاع تحقيق نجاح أكبر من نجاح والده، وكذلك، على الرّغم من انتعاش حالتهم الماديّة في تلك الأثناء، إلّا أنّهم جميعاً مازالوا يسكنون منزلاً متواضعاً بسيطاً، ويتناولون وجباتهم البسيطة نفسها، فلم يحصلوا على منزل هائل ضخم، ولم يتمرّدوا على وضعهم القديم، وربّما لأنّ هذا الأمر لم يكن يشغل أسرة بيل حقّاً، وإنّما ما كان يشغلهم هو العمل الحقيقيّ، والأخلاق البسيطة، والتواضع الشديد. ونتيجة لكلّ ذلك، فقد أحبّهم الناس من حولهم، وهم قد أحبّوا الآخرين حُبّاً جمّاً.

على الرّغم من انشغال الدكتور ألكسندر غراهام بيل في اختراعاته الكثيرة لاحقاً، التي كان على رأسها الهاتف، والغرامافون، وغيرهما، وكذلك المساعدات العمليّة التي يقوم بها من أجل مُساعدة الأشخاص الصُّمّ وضِعاف السّمع، إلّا أنّني اعتدت في تلك الفترة الزمنيّة مُراسلته، لأنّي لم أكن ألقاه بسبب انشغالاته المستمرّة تلك، وكنت حقّاً أكتب إليه الخطابات وأنا لا أتوقّع الردّ، إلّا أنّه كان يردّ على خطاباتي جميعها، ولم ينسَ أن يردّ يوماً على أيّ خطاب أرسلته إليه خلال تلك الفترة المهمّة جداً من حياته كمُخترع وعالِم جليل.

في الواقع، لم أكن أيضاً أتوقّع أنّ السيّد بيل كان ليقرأ كتبي وأعمالي المنشورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إبّان تلك الفترة، إلّا أنّ هذا لم يكن ليحدث، فلقد اهتمّ الدكتور ألكسندر غراهام بيل بقراءة كتبي وأعمالي المنشورة جميعها، وكان يُرسِل إليّ الخطابات ليُخبرني بمدى روعة تلك الأعمال، وكان يمتدحها، ويُرسِل إليّ الملاحظات بشأنها على الدوام، وهذا في حدّ ذاته شكّل فارقاً كبيراً لديّ، فلقد رأيت ذلك المُخترِع العظيم الشهير يتعامل معي مثل كاتبة عاديّة، وإنسان طبيعيّ، ولم يكن يتعامل معي كفتاة عمياء صمّاء صاحبة إعاقة، ومن ثمّ لم تكن معاملته تعرف الشّفقة، لكنّها كانت مُعاملة عادلة حقيقيّة.

لقد كتب إليّ يوماً بعد نشر كتابي المُعنون باسم (العالم الذي أعيش فيه)، يقول:

«أريدك، يا هيلين، أن تحسبيني أحد أولئك المفكّرين الذين يهتمّون حقاً بقضيّتك، وبما تُفكّرين فيه. أريدكِ أن تُخبريني صِدقاً بكلّ ما يدور في ذهنك، وبكلّ تلك التساؤلات الفكريّة التي تشغلك، وأريدكِ أيضاً أن تُخبريني باقتراحاتك الخاصّة من أجل إقامة نظام تعليميّ جيّد يخدم البشريّة جمعاء، ويوفّر تلك الخدمات الحقيقيّة الملموسة لأولئك من ذوي الإعاقة. أرجوكِ، حاولي إخباري بكلّ تلك الأمور، فهي حقاً تشغلني، كما أنّي أريدكِ أن تنفصلي عن ذاتك، وتُخبريني ما هي رؤيتك للمشهد ككلّ».

لقد أشاد الدكتور غراهام بيل أيضاً بكتابي المنشور المُعنوَن باسم (أغنية الجدار)، وقد قال لي إنّ هذا العمل الأدبيّ المهمّ يتّسم بالروعة الأسلوبيّة، ويجمع بين عالمَي الموسيقا والجمال.

لقد أدهشني الدكتور غراهام بيل كثيراً، وأسعدتني مراسلاته الكثيرة المُتعدّدة، إذ إنّه ذات يوم، وإبّان تلك الفترة التي كانت فيها تستعدّ معلّمتي العزيزة الآنسة آن سوليفان للزواج، كان الدكتور بيل قد أرسل إليّ خطاباً، وكتب فوقه بالخطّ العريض: «لا أريد أن تقرأ الآنسة سوليفان هذا الخطاب لهيلين!»، وبالفعل، فقد أخذت هذا الخطاب على الفور إلى صديقتي إليانور، التي قرأته لي، وفوجئت حقاً بما قاله لي السيّد بيل حينها، إذ إنّه قال بالحرفِ الواحد إنّه يعلم أنّ الآنسة آن سوليفان تتأهّب في تلك الفترة للزواج، وإنّه يرغب في أن يقدّم لها هديّة الزفاف. وفي الواقع، لم

يكن يعرف الأشياء التي تُعجبها حقاً، لذا طلب إليّ أن أساعده في ذلك الأمر، وطلب إليّ أيضاً ألّا أخبرها بأيّ شيء بخصوص تلك الهديّة حتّى ذلك اليوم الذي ستحصل فيه على هديّتها المُميّزة.

وجدنا مبلغاً من المال مُرفقا مع ذلك الخطاب، وقد طلب إليّ السيّد بيل أن أشتري الهديّة بذلك المال المُرسَل من جانبه، وقد ذهبنا بالفعل إلى بوسطن، وذهبنا إلى أجمل وأروع المحالّ التجاريّة هناك، التي تحوي مشتريات مدهشة من أنحاء العالم قاطبةً، ثمّ أحضرت لها ساعة حائط جميلة، وماكينة بسيطة لصنع القهوة، وقد ابتهج حقاً الدكتور ألكسندر عندما أخبرته بتلك الهدايا التي أحضرتها للآنسة آن سوليفان.

اعتاد الدكتور بيل العزيز الذهاب الدائم إلى حدائق الحيوان، إذ إنّه كان مولعاً بالحيوانات وطبيعتها، وكان دائماً ما يتأمّلها لفتراتٍ زمنيّة طويلة، ولقد عُرِف عنه ذلك الأمر بين الأصدقاء والمعارف. كان يذهب برفقتنا جميعاً إلى هناك لنحظى بوقتٍ مُمتع، ونتأمّل تلك الحيوانات على اختلافها، فلقد كانت له فلسفته الخاصّة الفريدة في ذلك الأمر. ذات يوم، أهداني الدكتور بيل ببغاءً مُلوّناً صغيراً ذا ريش مُميّز، وحينها كنت في غاية السرور، وأخذته إلى منزلي، وأسميته «جونكل»، وقد كان صديقي حقاً، فبدأ يقف على كتفي في أثناء القراءة لفتراتٍ قصيرة، ثمّ يطير ليحطّ على قدمي، وكانت أصوات تقليب صفحات الكتب تُشكّل له هاجساً، فكان حينها يُصدر صوتاً مُميّزاً، ويُداعبني بمنقاره.

يمكنني القول إنّ السيّد غراهام بيل، كان شخصاً رائعاً مُذهلاً مُحِباً للمُغامرة، ليل نهار. لقد عكف ذلك المُخترع المُغامر على حضور الفعاليات الطبيعيّة والثقافيّة التي من شأنها أن تُلهب حماسته وتزيد من حيويّته ونضوجه، ولقد أحبّ بيل ذلك الجانب الجنوني من الحياة، فلقد تعلّم جيّداً كيف يجعل عقله يُحلّق في السموات المفتوحة من دون أيّ حدود، ولقد حرص دائماً على حضور تلك الفعاليات التي من شأنها إنعاش روحه وجعلها مُتجدّدة على الدوام. لقد كان، في سبيل المثال، يُحبّ تلك الألعاب الناريّة التي كانت تتألّق عند النهر، وكان يصف لي المشهد بدقّة مُتناهية، وكيف تبدو النجوم اللامعة، وكيف تتورّد وجناتها، وكأنّ الربّ قد قبّلها توّاً!

الممسوحة ضوئياً بـ CamScanner

كنت أرتقي كلّياً عندما تُترجم لي تلك التعابير والصيغ الأدبيّة الإنسانيّة، وكنت أشعر وكأنّ جسدي يطير من مكانٍ إلى مكان، وكأنّني حقاً لا أعرف ما الذي تعنيه كلمة «إعاقة» على الإطلاق. لقد حرصت على امتصاص كلّ تلك المعاني في داخلي، ودفنتها عميقاً عميقاً إلى حين استدعائها مرّةً أخرى.

لَمّا انتهت تلك الأمسية المدهشة، ذهبنا معاً إلى إحدى البحيرات الدّافئة، وجلسنا حولها، وكان القمر يهمس في أذن السماء بالرحيل، وفي تلك الأثناء، كان الغسق قد خضّب صفحتها الواسعة، وكنّا أسرى لذلك المشهد الروحانيّ البديع! كنّا أسرى لهذا الهواء البارد المُنعِش الذي كان يُداعب وجوهنا ويُغازلها كما طريقة الطبيعة الساحرة. لقد كانت بيتسبيرغ حقاً مكاناً مُلهِماً، ومن المتوقّع لها أن تكون من أهمّ المناطق الصناعيّة في المستقبل.

لقد كانت تلك الأمسية أكثر أمسية ساحرة شهدتها طيلة حياتي كلّها، حيث اجتمع فيها الكُتّاب والعلماء والمُفكّرون والفلاسفة، وهناك أخذنا نتحدّث معاً على ضفاف النهر، ثمّ لاحقاً أخذنا رحلة نهريّة في أحد القوارب الجميلة، وتناقشنا معاً في كلّ ما يخصّ الأقمار والنجوم والكواكب والأفلاك والمُذنّبات والكسوف، وكلّ تلك القضايا الطبيعيّة، وناقشناها أيضاً من منظور الشّعر والأدب، وكذلك العلم والبحث، ولقد علمت حينها أنّه إذا انفجر نجم في السموات فإنّ نوره يُسافر عبر ملايين السنوات! لقد أدهشتني تلك الحقيقة العلميّة، ولقد أذهلني كلّ ذلك الجمال والعبقريّة، وجعلني في حيرة من أمري! أخذت أتأمّل كلّ تلك الصور والمشاهد الإعجازيّة الملموسة، فكلّ ما حولنا حقاً هو معجزة في حدّ ذاته، حتّى إنّ حيواتنا نحن كبشر هي معجزة أخرى، وموتنا وانتقالنا إلى عالم آخر في صورةٍ أخرى معجزة أخرى، لا يُمكننا تجاهلها في أيّ حال من الأحوال.

أخبرت الدكتور غراهام بيل برغبتي الدائمة في الكتابة ومُساعدة أصحاب الإعاقات على نحوٍ خاصّ من خلال كتاباتي تلك، لكنّني أيضاً أشعر بالإحباط الشديد بعض الشيء نتيجة ما قاله لي أساتذتي في أثناء دراستي الجامعيّة، أنّه ربّما لن أستطيع تحقيق أمور كبيرة عدّة نظراً لطبيعة إعاقتي الخاصّة، وأنّ هذا الشيء في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدّ ذاته يُثبّط من عزيمتي على الدوام كلّما فكّرت في إنتاج أمرٍ ما. لكنّ الدكتور بيل حاول بشتّى الطرائق تحفيزي، وقال لي إنّ كلّ هذا هراء، وإنّ ما يهمّ هو أن أعمل ما أشعر حقاً في أعماق نفسي أنّي أودّ عمله، وقال لي:

«اكتبي يا هيلين، عبّري عن نفسك، وعن قضيّتك، وعن شعورك، فلا تلتزمي الصمت بشأن ذلك، فكيانك مسؤوليتك الخاصّة. لا تستمعي إلى كلام شخص يحاول أن يُحبطك بطريقةٍ ما، كلّ ما عليكِ فعله بإخلاص هو أن تفعلي كلّ تلك الأشياء التي تودّين حقاً فعلها، ولا تترددي في التعبير عن نفسك، فأنتِ مَن يتوجّب عليكِ فعل ذلك، ولا يتوجّب عليكِ أن تسمحي لأحدهم بأن يفعل ذلك نيابةً عنكِ! إنّني واثق بأنّكِ ستكونين امرأة ذات شأن عظيم!»

ولَمّا سألته: وما الذي جعلك تظنّ ذلك يا سيّد غراهام؟

أجابني: في الواقع، لطالما راقبتكِ منذ كنتِ طفلةً صغيرة، وأدركت جيّداً مدى ذكائكِ وحساسيتكِ وإصرارك على التعلّم. أنا شديد الثقة حقاً، يا هيلين، أنّكِ ستصبحين امرأةً ذات شأن عظيم.

لقد دهمني الحزن الشديد عندما خسرت صديقي القديم السيّد غراهام بيل حين مات في عام ١٩٢٢، فلقد بَلّلت الدموع وجنتيّ، ولم أجد حينها مَن يُهَوّن عليّ قسوة وصعوبة رحيله، فقد كان هو الصديق الأقدم في حياتي، الذي كنت أعرفه مُذ كنت طفلة صغيرة لا تعرف شيئاً عن العالم.

واجهت المزيد من الصعوبات الماليّة في فترة زمنيّة لاحقة، وبعد أن قدّمني صديقي العزيز غراهام بيل في إحدى المحاضرات للمرّة الأولى أمام الجمهور العامّ، وحينها نجحت في أن أتحدّث عن قضيتي وأزمتي الخاصّة التي تتمثل في الإعاقة أمام تلك الجماهير العريضة المزدحمة شيئاً فشيئاً، لكنّي لاحقاً أردت أن أتحدّث عن شيء آخر، فلقد أردت مناقشة قضايا أخرى تشغل المجتمع الإنساني، وتشغلني أنا الأخرى. ومن هنا، تحديداً، بدأت المشكلة، إذ إنّ منظّمي تلك المحاضرات وضعوا شرطاً أصيلاً ألّا أتحدّث إلّا عن نفسي وقصّتي الشخصيّة فقط، حتّى بعد أن ذهبت الآنسة آن سوليفان مع زوجها وغادرت المنزل، بدأت تقلّ تلك المعونة الماليّة التي كنّا

CamScanner الممسوحة ضوئياً بـ

نحصل عليها، وحينها حاولت أن أراسل الصحف والمجلّات وأكتب مقالات وأعمدة صحفيّة أتقاضى لقاءها أجراً رمزياً، لكن في واقع الأمر اشترطت تلك الصحف والمجلّات أيضاً ألّا أكتب إلّا عن نفسي وقصّتي الشخصيّة، وألّا أتحدّث أبداً عن شيء إضافي، حتّى إنّهم، في كثيرٍ من الأحيان، كانوا يُراسلونني ويقولون لماذا كتبتِ تلك الفقرة المُحدّدة؟ سنحذف كلّ ما ليس له علاقة بقصّة حياتك الشخصيّة! فالإشكاليّة حينها كانت تكمن في شيءٍ واحد وهو أنّ المجلّات ومنظّمي المحاضرات والندوات الثقافيّة يريدون أن تكون موضوعاتي عن حياتي الشخصيّة فقط، لكنّني مللت التحدّث عن نفسي طيلة الوقت، فقد أجهدني ذلك وآلمني. في الواقع، لقد كان لديّ المزيد والمزيد من القضايا التي أرغب حقاً في مناقشتها بشكلٍ واضح للبحث عن حلول لها، لكنّني لم أكن أُخطط للحديث عن نفسي طيلة الوقت من دون البحث عن شيء آخر.

لقد عشت فترة صعبة من فترات حياتي، وعلى الرّغم من أنّي أعرف جيداً أنّ مسألة تلك الأزمات الماديّة يمرّ بها جميع البشر على اختلافهم في حيواتهم المختلفة، إلّا أنّ ما مررت به كان قاسياً، فمسألة ألّا يمكنني أن أحصل على لقاء ماديّ إلّا إذا كتبت عن قصّة حياتي الشخصيّة فحسب كانت أمراً لا يُرضيني البتّة! فكيف أفعل ذلك فحسب؟ ألا يعني ذلك أنّي امرأة بسيطة تُتاجر بإعاقتها السمعيّة والبصريّة فقط حتّى تحصل على تعاطف الآخرين من حولها؟ لكنّني لم أكن قطّ تلك المرأة، فقد كنت فتاة يافعة ذات كبرياء، ولم أكن أتوسّل البتّة تعاطف الناس وشفقتهم. لم أكن قطّ أرغب في القيام بتلك الأمور الدعائيّة التافهة، لكن كلّ ما أردته حقاً هو أداء دوري، كاتبة ومفكّرة، لها نظرة فلسفيّة إلى الحياة، التي تشمل أيضاً تعاطيها وتعاملها مع طبيعة إعاقتها الخاصّة! لقد أحبطني كلّ ذلك وثبّط عزيمتي، واكتشفت أنّ إحدى الأسر الثريّة تُقدّم لي معاشاً سنوياً رمزياً من دون علمي. في الواقع، لقد أغضبني ذلك الأمر وزاد من حنقي، وجعلني أشعر وكأنّي أوشك أن أختنق، فلم أكن أرغب قطّ في أن أحصل على إعانة من أحدهم، فأنا ربّما أكون امرأة عمياء صمّاء، لكنّي قادرة على كسب لقمة عيشي بنفسي، ومازلت قادرة على العمل. لقد ذهبت إلى أسرة كارينجي، تلك الأسرة الثريّة، التي تطوّع أفرادها في تخصيص معاش سنويّ لأجلي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وطلبت إليهم إلغاء ذلك الأمر إذ لا يمكنني قبوله في أيّ حالٍ من الأحوال، فأنا امرأة حُرّة قادرة على العمل، ويمكنني تدبُّر أمري بنفسي من دون الحصول على أيّ مُساعدة، ولقد كانوا حقاً أناساً لطافاً ودودين، لكنّهم أصرّوا على ذلك، وعلى الرّغم من هذا الإصرار الكبير، إلّا أنّني رفضت كلياً أن أحصل على ذلك المعاش السنويّ. لقد كانت رحلتي طويلة فالأمر لا يخصّني وحدي بل يخصّ كذلك أولئك الأشخاص من أصحاب الإعاقات، الذين أتحدّث نيابةً عنهم، وكذلك أيضاً دوري في العمل في مجال النشاط الاجتماعي، فلم يكن في مقدوري البتّة التخلّي عن ذلك الدور الذي أودُّ حقاً أن أقوم به من خلال قبول معاش سنويّ كهذا.

بدأ السيّد كارينجي يقتنع بما أقول شيئاً فشيئاً، ثمّ بدأ يُناقشني في مسألة عملي كمُحاضِرة، وقلت له إنّني في الفترة الحاليّة قد توقّفت عن فعل ذلك الأمر، وإنّ السبب في ذلك يرجع إلى نقطة خلافي مع مُنظّمي المؤتمرات والندوات والمحاضرات، الذين يُصرّون على ألّا أناقش أيّ شيء خلال تلك اللقاءات الثقافيّة سوى قصّة حياتي الشخصيّة، وحينها قال لي السيّد كارينجي:

«وما هي الموضوعات الأخرى التي ترغبين في تقديمها في محاضراتك للجمهور العام؟»

حينها، شرحت له تلك القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والإنسانيّة الكُبرى التي تشغلني، وأنّي بالفعل أعمل كناشطة اجتماعيّة وحقوقيّة، وأنّ تلك الأمور هي التي أودُّ حقاً أن أعمل عليها بجدّ وإخلاص للوصول إلى مجتمعٍ أفضل، وحينها سألني: «وما المقابل الماديّ الذي يمكن أن تتقاضيه لقاء كلّ محاضرة، أو ما المقابل الذي كنتِ تتقاضينه في السابق؟»

حينها، أجبته بأنّي كنت أتقاضى دولاراً أو دولاراً ونصفاً لقاء كلّ محاضرة كنت ألقيها. حينها، قال لي إنّ هذا سيكون مبلغاً كبيراً، وإنّه سيقلّ حتّى يكون ثمن المُحاضرة الواحدة من خمسين إلى سبعين سِنتاً فقط، وإنّه بذلك سيضمن حضور أكبر عدد ممكن من الجماهير العامّة.

في الواقع، لقد رفضت عرضه ذلك أيضاً، لأنّ المسألة بدت أشبه بمقايضة ماليّة،

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
CamScanner الممسوحة ضوئياً بـ

لذا اعتذرت له بلطف شديد. ثمّ إنّه أخذني في جولة في غرفة المكتبة الخاصّة به، وعرّفني إلى أشهر وأبرز المؤلّفين البارزين، الذين يكنّ لهم كلّ الحبّ والتقدير، وكذلك عرض لي كلّ الصناديق التي تملؤها الجواهر، والتي أهداها إليه عدد من الملوك والملكات الشهيرات عبر التاريخ.

لقد كان حقاً رجلاً كريماً ودوداً، على الرّغم من أنّي قد رفضت عرضه بلباقة، لكن المهمّ هنا هو أنّه قد سألني أيضاً عن الكتابة، وسأل: «لماذا لا تكتبين في المجلّات والصحف يا آنسة هيلين؟»، وحينها أجبته على الفور بأنّني لا أريد أن أكتب عن حياتي الشخصيّة، لكن عن تلك القضايا الأخرى التي أؤمن بها، والتي أسعى إلى تحقيقها على أرض الواقع.

بعد انتهاء لقائنا غادرت إلى المنزل، وهنا أخذت أفكّر وأتأمّل تلك الأزمات المتتالية التي عصفت بحياتي في مراحلها الزمنيّة المختلفة، لكنّني فكّرت، في نهاية المطاف، في أنّ السبيل الوحيد لخروجي من كلّ أزمة هو أن أتأمّل جيّداً وأحلّل كيف تمكّن الأشخاص المؤثّرون في حياتنا الراهنة من تخطّي أزماتهم الخاصّة. تعلّمت أن أقرأ وأتأمّل وأحلّل كيف نجح هؤلاء جميعاً في تخطّي تلك الأزمات والمشكلات التي لا حصر لها، والتي حاصرتهم في إصرارٍ لا يرحم، فربّما هذا هو السبيل الوحيد حتّى يمكنني أنا الأخرى أن أتجاوز كلّ ذلك، ومن ثمّ الوصول إلى مرحلة آمنة.

لقد تعلّمت جيداً أن أستمع إلى موسيقا الصمت، تلك التي أدهشتني وزادت من صلابتي وإصراري على المُضيّ قدماً. كلّ ذلك السلام غمرني كلّياً وجعلني قادرة على التفكير في حلّ حقيقيّ فاعل لتجاوز تلك الأزمات والمشكلات التي أمرّ بها خلال رحلتي الحياتيّة. لاحقاً، تلقّيت دعوات عدّة لأجل إلقاء محاضراتي الخاصّة بالموضوعات الاجتماعيّة والإنسانيّة، والمشاركة في الحياة السياسيّة، وحقّ المرأة الكامل في التصويت، فكلّ تلك المسائل عكفت على التحدّث عنها في أثناء تلك المحاضرات، ولقد حظيت بلقاء جماهيريّ مدهش، لقد أحبّني الجمهور، وهتف لي، وصفّق من أجلي، وعلى الرّغم من أنّي لم أنصت إلى تلك الأجواء الصاخبة بسبب إعاقتي السمعيّة إلّا أنّ زملائي وأصدقائي قد وصفوا لي مدى حفاوة ذلك المشهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المهيب.

لقد أدركت لاحقاً مدى امتناني لتلك الرحلة التي خضتها بنفسي، تلك الرحلة التي بدأت بفشلٍ واضح في أشياء عدّة، ثمّ تمكّنت بعد ذلك من قهر تلك الصور السلبيّة وتحويلها إلى أمور إيجابيّة. لقد تأمّلت صعوبات حياتي كلّها، وأيقنت تمام اليقين أنّ رحلتي بأسرها كانت رحلة مُباركة، فلقد عرفت مدى تلك المثابرة، وذلك الإصرار الذي تحلّيت به من أجل تحقيق انتصارات يوميّة بسيطة، التي استحالت لاحقاً إلى انتصار كبير ملموس، ما غيّر حياتي بأسرها. لقد اكتشفت أنّني تمكّنت من تخطّي العمى والصمم، ولقد اكتشفت أنّني استطعت السّفر والتحليق بعيداً عبر السموات المفتوحة، ووصلت إلى أبعاد ورؤى أخرى، وبات لديّ منظور آخر لتأمّل القضايا والأمور.

لقد كانت رحلتي حقاً ممتلئة بالأحداث الحافلة والاضطرابات والتحدّيات، ومع ذلك، لمّا وُلِدت بتلك الصورة لم تكن روحي الداخليّة مقتنعة بفكرة الاستسلام، ووجدتني أبحث من حولي بكلّ السّبل عن طوق نجاة ملموس، لكنّني لم أتمكّن من تحقيق فكرة النجاة تلك حقاً إلّا بعد أن عرفت أنّه لا يمكنني أن أنجو من دون أن أفتّش عميقاً في داخلي.

لقد فتّشت وفتّشت، وتوصّلت إلى حقيقة واحدة، وهي أنّه لن يمكنني تحقيق أحلامي من دون أن أتحرّر كلّياً من الداخل، وأن أحطّم تلك القيود والأغلال التي تمنعني من المواصلة قُدماً. لقد أدركت أنّ التفاؤل كان منهجي منذ بداية المطاف، إذ كنت فتاة متفائلة ترفض الاستسلام منذ الصغر، وهذا في حدّ ذاته ما جعلني أرفض أن ألتزم بتلك الحدود الماديّة التي يفرضها عالم الإعاقة.

لا يمكنني أبداً أن أنسى تلك الذكريات التي تتعلّق بالمرّة الأولى التي سافرت فيها حول العالم، وانتقلت إلى كندا، هناك حيث كنت برفقة أمّي الغالية ومعلّمتي العزيزة الآنسة سوليفان، ولقد بلغت سعادتي عنان السماء لأنّ أمّي كانت تتمنّى حقاً أن تسافر حول العالم، وها هي ذي تلك الفرصة قد تحقّقت توّاً، وقد تمكّنت من الانضمام إليّ. لقد كنّا سعداء حقاً حينها، وحاولنا الاستمتاع بتلك الأوقات المبهجة معاً، وأخذت الآنسة آن سوليفان، وكذلك أمّي، تصف لي ما يحدث وطبيعة الأجواء وبساتين

البرتقال المجاورة للقطار الذي نستقلّه، وكيف تبدو السكك الحديديّة وتلك السماء الزرقاء الشاسعة، وأشعّة الشمس البرتقاليّة. وقد التقينا على متن القطار بعدد هائل من الصحافيين والمصوّرين والمُراسلين الذين تجمهروا حولنا وبدؤوا في التحدّث إلينا وطرح بعض الأسئلة عن العمل الاجتماعيّ والنشاط الخدميّ الذي أقوم به، وذلك الدور المجتمعيّ الآخر الذي يشمل إلقاء المحاضرات وكتابة المقالات، وأعمدة الصحف، ولقد طرحوا مزيداً من التساؤلات الأخرى أيضاً عن حياتي الشخصيّة وقصّتي بتفاصيلها وجوانبها كافّة.

قالت أمّي إنّ تلك الأيام التي قضتها برفقتنا في جولة حول العالم هي أسعد وأجمل أيام حياتها على الإطلاق، ولقد أخبرتني أنّها لطالما اشتاقت مراراً وتكراراً إلى أن تسافر إلى بلاد أخرى لتستمتع بجمالها ورونقها الخاص، وأنّني وحدي مَن قدرت على تحقيق تلك الأمنية لها.

تلك الذكريات الجميلة تُداعب روحي حتّى الآن، وبعد أن أصبحت امرأة هرمة لا تكفّ تلك الذكريات العذبة عن الهمس في أذني بصوتها الشّجيّ الحنون، تلك الآمال الكبيرة العظيمة التي كانت تسكن قلبي في تلك الأثناء والتي مكّنتني من المُضيّ قدماً. آه كم هي ذكريات بديعة هادئة زرعت على قلبي بكلّ سكينة وحكمة! مازلت أتذكّر تلك الأيام الخوالي التي كنت أتجوّل فيها برفقة أمّي العزيزة ومعلّمتي آن سوليفان، مازلت أتذكّر كيف كنّا نجلس معاً في مقاهي ومطاعم كاليفورنيا، وكيف كنّا نتنقّل ونتجوّل من مكانٍ إلى آخر، في حين يسكننا غبق تلك الأماكن وعراقتها. لقد كنت مُحمّلة بكلّ تلك الروائح الجميلة الطيّبة، فكنت مثلاً أعرف أسماء الشوارع والأماكن والطرقات بناءً على تلك الروائح التي تسكن أنفي ولا تُغادرها، ولقد سكنتني روائح الأطعمة الشهيّة، والروائح العطريّة، وروائح الزهور النفّاذة والعطور، إذ اختبرت كلّ تلك الروائح وحفظتها عن ظهر قلب، فلقد شكّلت ذاكرة في حدّ ذاتها بالنسبة إليّ، وباتت وطناً آخر يسكنني.

لقد أحببتها وتأمّلتها ملياً إلى ذلك الحدّ الذي جعلني أفكّر فعلاً في تأليف كتاب يتحدّث عن روائح كاليفورنيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكنني الاعتراف بأنّني أحببت رحلتي حقاً، وتعلّقت بها كلّياً، ورضيت عن كلّ تحدّياتها وصعوباتها تمام الرّضا. لقد تأمّلت قصّة حياتي الخاصّة وكأنّها قصيدة شعريّة طويلة، إذ إنّها أبهجتني وأراحتني وأسعدت نفسي، على الرّغم من كلّ أزماتها وتقلّباتها واضطراباتها، إلّا أنّني أدركت أنّ كلّ ذلك جاء ليؤكّد جمال الرحلة وعمق معناها.

لاحقاً، رحلت أمّي، وحلّت محلّها سكرتيرتي السيّدة بولي تامبسون، التي كانت تقوم بكلّ شيء، إذ كانت تتولّى إدارة المنزل، وكذلك كانت تُرتّب مواعيدي وجدولي الخاصّ، كما كانت تُرافقني إلى الآخرين، وتقرأ لي الرسائل. لقد استطاعت السيّدة بولي أن تفعل كلّ ذلك بمفردها، بكلّ شجاعة، فلقد كانت حقاً امرأة طيّبة ودوداً وجميلة، وكانت شديدة الحنان والرقّة، ولقد شعرت بالامتنان حقاً لوجودها في حياتي في تلك الفترة الزمنيّة، ففي تلك الفترة عشت وقتاً سيّئاً جداً لأنّ العالم بأسره كان يمرّ بفترة عصيبة جداً، تتخلّلها الحروب والصراعات العالميّة، وكانت هناك شعوب تنام جائعة، وهناك قتلى وجرحى. لقد كرهت الحروب بكلّ أنواعها، وكان لي تحفّظ شديد على مسألة وجود القوى العسكريّة في كلّ بلاد العالم! لقد كرهت كلّ تلك الصور القاسية الوحشيّة التي جعلتنا نتعامل مع بعضنا بعضاً بمنتهى الضراوة، ولقد حاولت أن أبحث عن حلول فعليّة لتلك الأزمات والحروب، وحاولت أن أفكّر في كيف بإمكاننا، نحن الناشطين الاجتماعيين، أن نُساعد غيرنا من البشر حول العالم.

لا أدّعي أنّني على دراية واسعة بكلّ مشكلات العالم التي تُحيط بي، لكنّني أردت بكلّ السُبل أن أشارك في تقديم حلول ومقترحات فاعلة لتلك المعضلات، فأنا واحدة من المُشاركين في هذا العالم، وممّن يرغبون في ترك بصماتهم فيه بكلّ الطرائق المُمكنة.

لمّا التقيت، أوّل مرّة، تلك الجماهير العريضة، اعتقدت أنّه ربّما جاءت كلّ تلك الأعداد الهائلة من أجل الاستماع حقاً إلى محاضراتي حول تلك الموضوعات الاجتماعيّة والقضايا الفكريّة الأخرى التي أردت صدقاً إلقاءها على مسامعهم، لكنّي فوجئت لاحقاً أنّ هذه الجماهير المزدحمة قد جاءت تحديداً من أجل الاستماع إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصّة حياتي الحقيقيّة، لقد جاؤوا إلى هناك من أجل الإصغاء إلى تلك المعلومات التي تخصّ حياتي الشخصيّة، وكلّ تلك التفاصيل والمسائل التي تحدّثت عنها مراراً وتكراراً من خلال كتاباتي الصحفيّة وندواتي الحواريّة. لقد مللت التحدّث عن حياتي الخاصّة، مللت الإسهاب في الحديث عن كيفيّة إصابتي بالعمى والصمم، فلقد أجهدني ذلك الحديث المُتكرّر عن تلك المساعدات التي حصلت عليها حتّى أتمكّن من أن أصبح وفق الصورة التي أنا عليها الآن. لقد أجهدني كلّ ذلك، فالأمر كان أشبه بأن تأتي بقرد وتجعله يقف داخل القفص ليُسلّي الآخرين! وأخذت أتساءل في إلحاح: يا تُرى، ما فائدة تكرار تلك العبارات المُملّة عن حياتي الشخصيّة؟ وما قيمة كلّ هذا ما دمت قد رويته وسردته على أسماع الجماهير مراراً وتكراراً؟ ما فائدة أن أقول ذلك مرّة أخرى وأنا بالفعل قد كتبته في أعمالي وكتاباتي التي نُشرت على مدار تلك السنوات الطويلة؟ فلماذا إذاً قد يتوجّب عليّ القيام بهذا السّرد المُكرّر مادام مذكوراً في أعمالي كلّها، وهي التي صدرت على نحو متتالٍ، وكان على رأسها (قصّة حياتي)، و(العالم الذي أعيش فيه)، و(الظلام الذي أعرفه)، وغيرها من الكتابات الأخرى التي حاولت فيها أن أسرد قصّة حياتي تفصيلاً. لقد حرصت حقاً على أن أحكي كلّ تلك التفاصيل، وأن أذكر كيف سارت رحلتي الحياتيّة، فلقد فعلت كلّ ما في وسعي حقاً من أجل وضع الأشياء في نصابها الصحيح، لكن لماذا يمنعني الآخرون في الوقت الراهن من أداء دوري كناشطة اجتماعيّة؟ لقد عملت في ذلك المجال لفترة زمنيّة طويلة، ولقد قدّمت حقاً خدمات مجتمعيّة للمزيد من البشر في أماكن مختلفة من العالم، وعملت أيضاً في مساعدة ومُساندة المزيد من أصحاب الإعاقات الخاصّة على الصعيد العالميّ، وقرأت عشرات الكتب في الفلسفة والتحديات العلميّة والأدب والفكر والميتافيزيقا وخلافه من العلوم الأخرى، ولقد نجحت فعلاً في مُمارسة تلك النشاطات الاجتماعيّة على أرض الواقع. وعلى الرّغم من كلّ ذلك، تركت الجماهير العريضة كلّ هذا العمل الذي أنجزته وأرادت فقط أن تستمع إلى قصّة حياتي المُكرّرة التي قد مللت حقاً سردها على مسامع الجماهير العامّة، وهم لم يملّوا سماعها على نحوٍ مُكرّر.

لقد ازداد غضبي وسخطي طيلة هذه الفترة لأنّني شعرت أنّي أؤدّي دور الببغاء

الذي يُكرِّر عبارات مُحدَّدة، ولقد تساءلت في قرارة نفسي عن موعد خلاصي من ذلك الأمر. لقد أردت أن أتحرَّز من فرض تلك المسألة على نفسي، إذ لطالما أردت أن أُعبِّر عن ذاتي وعن تلك القضايا التي تشغلني حقاً، والتي أسعى إلى حلِّها وعلاجها، ولطالما أردت أن أكون في أنظار هذه الجماهير أكثر من مجرَّد تلك الصورة للمرأة صاحبة الإعاقة السمعيَّة والبصريَّة، التي تتحدَّث طيلة الوقت عن طبيعة إعاقتها، وعن كيفيَّة تجاوزها لتلك الإعاقة! لقد أردت فعلاً أن أقوم بالدور الفاعل المؤثِّر الذي خُلِقت لأجله، ذلك الدور الذي آمنت في قرارة نفسي بأنِّي قد جئت إلى هنا لأدائه، فلقد كانت لديَّ تلك الدوافع التحفيزيَّة التي قادتني إلى المُضيِّ قدماً حتَّى تمكَّنت من تجاوز تلك الإعاقة، لكنَّ الدافع الرئيس والأكيد كان يتمثَّل على نحوٍ دقيق في رغبتي في مساعدة مَن حولي من أصحاب تلك الإعاقات على مستوى العالم أجمع، فأنا لم أتمكَّن حقاً من تجاوز ذلك التحدِّي المُتمثِّل في الإعاقة عن طريق رغبتي المُجرَّدة فقط في أن أكون ممَّن نجحوا في تحدِّي وتجاوز تلك الإعاقة، لكنَّني فعلت ذلك لأنِّي أردت أن أساعد الآخرين. لقد ملأتني تلك الرغبة بالحيويَّة والقدرة على المضيِّ قدماً، عندما وضعت ذلك الأمر كهدف حقيقيٍّ بالنسبة إليَّ إبَّان الفترات القادمة من حياتي، فقد ساعدني ذلك حينها في تجاوز حدود مسألة تلك الإعاقة الماديَّة، ومن ثمَّ فقد سلكت طريقاً شاسعاً مُمتدَّاً، وتمكَّنت حقاً من اكتشاف تلك الكنوز المختبئة داخل نفسي، وحينها فقط تمكَّنت من التحليق عالياً في سموات عالمي المفتوحة، وحينها فقط عرفت هذا الطريق إلى روحي، وفي تلك اللحظة فقط عرفت مَن أنا، وعندها تجاوزت تلك التحدِّيات الماديَّة التي كانت في بادئ الأمر تُثبِّط عزيمتي وتُصيبني بالإحباط الكبير نتيجة لعدم امتلاكي تلك القدرات الماديَّة التي امتلكها آخرون، وهنا خشيت حقاً أن أكون محدودة الإنجاز فلا أتمكَّن من تحقيق تلك الأحلام التي تراودني في أثناء يقظتي!

لا يمكنني أبداً أن أخفيكم سرَّاً أنِّي لم أكن بهذا التفاؤل بادئ المطاف، فلا يمكنني أبداً أن أكذب عليكم وأقول لكم إنِّني قد تقبَّلت إعاقتي تلك منذ البداية. على النقيض من ذلك، فقد كان كلُّ ذلك غير صحيح، إذ إنِّني كنت فتاة شديدة التمرُّد والثورة على تلك الحالة التي أصابتني في تلك السِّنِّ المُبكرة، ولم أكن قطُّ حينها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راضية عن إعاقتي السمعيّة وفقداني البصر، وقد تدرّبت على الأملِ شيئاً فشيئاً. ببساطة شديدة، لقد كان الغضب والسخط يملأان روحي في تلك الفترة الحرجة من حياتي، ولقد أخذت أتساءل في سرّي: يا تُرى، لماذا أنا هكذا؟ ولاحقاً تمكّنت من تخطّي كلّ تلك الحدود الماديّة الضيّقة عندما تعلّمت أن أقرأ بطريقة «برايل»، أو الأحرف النافرة، وكذلك تعلّمت كيف أقرأ شفاه الآخرين، ومن هنا تحديداً استطعت أن أفهم لغة التواصل التي تربط بين البشر، والتي يفهمون بها بعضهم بعضاً. لقد أدركت مع مرور الوقت أنّني قادرة على فهم تلك اللغة التي يتعامل بها البشر، وقد نجحت معلّمتي العزيزة آن سوليفان في مساعدتي في نُطق الكلمات على نحوٍ سليم. وبالفعل، تمكّنت من إتقان اللغة الإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة، ولاحقاً تعلّمت القراءة بطريقة الأحرف البارزة، وقد تمكّنت من قراءة ومُطالعة العديد والعديد من الكتب والمجلّدات الضخمة في مختلف المجالات والميادين العلميّة، وإنّني أدين لكتب الفلسفة تحديداً في مساعدتي في تكوين وجهة نظر خاصّة بي إزاء الحياة، التي ساعدتني في فهم كلّ القضايا المُحيطة بي من منظور فلسفيّ. لقد نجحت حقاً في تجاوز كلّ تلك التحدّيات عن طريق القراءة في مجال الفلسفة والأدب، ذلك المجال الآخر الذي مكّنني حقاً من فهم معاني مختلف الأمور والقضايا، وكذلك أكسبني خبرة كبيرة في مجال الثقافة والاطّلاع، وأيضاً ساعدني في فهم معاني الكلمات، وأكسبني أبعاداً أخرى. وقد أدركت لاحقاً مدى عُمق الكلمة وتأثيرها، ومدى مرونتها وقوّتها وطاقتها الخاصّة، ولقد مكّنتني القراءة في مجال الأدب من تعرُّف كلّ الأوصاف والتعابير المجازيّة والتشبيهات، فصقل كلُّ ذلك لغتي وأسلوبي الأدبيّ الخاصّ، الذي ظهر لاحقاً عبر كتاباتي في ذلك الحقل.

انتقلنا بعد مرور فترة من الزمن إلى منزل هادئ في إحدى ضواحي نيويورك، وهناك عشنا معاً، أنا والآنسة آن سوليفان والسيّدة بولي سامبثون، وقد عكفت هناك على تعلُّم اللغة الإيطاليّة لأنّي أردت قراءة دانتي بلغته الأمّ الأصليّة لا المُترجَمة، ولقد ساعدتني البيئة المُحيطة بهذا المكان في المُضيّ قدماً في دراستي. زرعنا أشجار الفواكه المختلفة في حدائق المنزل الجميلة، التي أضفت نوعاً من البهجة والشاعريّة على المكان الذي كان أشبه بقلعة ساكنة. كانت حياتنا هناك خالية تماماً من الصخب

والضوضاء، لكنها كانت في قمّة الهدوء، وتعلّمت هناك أن أعيش تلك الحياة الهادئة برفقة كتبي وأحلامي.

لاحقاً، تلقّيت خطاباً من أحد المنتجين السينمائيين في هوليوود، أعرب فيه عن رغبته الشديدة في أن يحوّل قصّة حياتي إلى فيلم سينمائي، وفي تلك اللحظة أحسست بالغرابة بعض الشيء، فأنا لم أكن حقاً موقنة في قرارة نفسي بإمكان نجاح عمل كهذا! وأخذت أتساءل: يا ترى، هل من الممكن أن يُشاهد الناس فيلماً كهذا! فأنا أرى أنّ قصّة حياتي غير مُثيرة على الإطلاق، بل على النقيض من ذلك، فهي قصّة مُملّة بعض الشيء، ذات إيقاع بطيء، فأيّ مشاهد هذا الذي سيجد فيها مُتعة؟ لقد خشيت حقاً أن يفشل ذلك العمل فشلاً ذريعاً، فيؤدّي ذلك في نهاية المطاف إلى خسارة ماديّة مُحقّقة. لقد كنت أشعر بأني كما الفيل الذي يحمله المُنتج على كتفيه! فهل حقاً سيكون مشروعاً فنياً مُوفّقاً؟ هل قصّة حياتي الحقيقيّة هي مادّة صالحة للعرض والتجسيد على شاشة السينما؟

رحت أتخيّل في تلك الأثناء صورة تلك البطلة التي قد تؤدّي دوري خلال ذلك العمل الفنيّ، وأخذت أتساءل حقاً: يا ترى، كيف تبدو؟ وهل حقاً درست تلك الممثلة طبيعة إعاقتي وتعرف كيف تُجسّدها؟

كانت تلك التساؤلات تسكن رأسي في تلك الفترة حتّى تلك اللحظة التي وطأت فيها قدمي أرض هوليوود أو أرض المغامرة، تلك الأرض التي تُنادي كلّ من يمرّ بها وتدعوه إلى أن يكون مُغامراً جريئاً. لقد شعرت بذلك في أعماق نفسي حقاً، ولقد شعرت وكأنّ أرض هوليوود تُناديني لأكون أكثر جرأة ومُغامرة، إذ احتلّني ذاك الشعور المُدهش العميق وأدهشني. لمّا وصلت إلى تلك الاستديوهات السينمائيّة، طلب إليّ المُخرج أن أظهر بنفسي لأُجسّد شخصيّتي الحقيقيّة على شاشة السينما! لقد فوجئت حقاً بطلبه هذا، إذ لم أكن أتصوّر حقاً أن أؤدّي هذا الدور! لم أكن أتخيّل أن أكون أنا تلك الممثلة التي يجدر بها تجسيد دور هيلين كيلر ومعاناتها وحياتها على الشاشة! لقد وقفت جامدة في مكاني، وحينها طلب إليّ أن أقف مُواجهة الكاميرات. لقد كان الأمر حقاً مُربكاً بالنسبة إليّ، وقد أخبرني أيضاً أنّهم في حاجة إلى دعوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المزيد من أصدقائي المعروفين والشخصيّات البارزة في ذلك العمل للمشاركة فيه بتجسيد أدوارهم، وهذا كلّه في حدّ ذاته كان أمراً غريباً، وذلك لأنّ معظم أصدقائي هؤلاء كانوا قد لقوا حتوفهم بالفعل، ولم يعد منهم أحد في قيد الحياة. حتّى أنا، أصبحت أكبر سناً، وبالطبع لم يكن في مقدوري إلّا دعوة أولئك الأصدقاء الذين مازالوا في قيد الحياة، وإبلاغهم بأمر ذلك الفيلم السينمائيّ، وما إذا كانت لديهم الرغبة في المشاركة في هذا العمل الفنيّ.

في ذلك الحين، كان الدكتور ألكسندر غراهام بيل لا يزال في قيد الحياة، وقد أرسلت إليه خطاباً أبلغه فيه بكلّ ما عرفته خلال ذلك العرض السينمائيّ، وكان قد أرسل إليّ خطاباً دافئاً قال فيه إنّه على الرّغم من كبر سنّي إلّا أنّه لا يزال يراني في صورة تلك الطفلة الصغيرة عينها، وأنّه سعيد بأن يُشاركني أيّ شيء أريده، لأنّه يُقدّرني حقاً، ويحسبني من أهمّ أصدقائه.

لقد استمتعت حقاً بوجودي في تلك الاستديوهات الفنيّة، ولقد احتلّت السعادة العامرة قلبي حقاً. لقد قفزت في سعادة كما الأطفال، وذلك حين دعانا شارلي شابلن إلى الاستديو الخاصّ به لمشاهدة أفلامه، وعندها عبّر شارلي عن وافر سعادته وامتنانه، وقال إنّه حقاً سعيد لأنّي أرغب في الذهاب إلى الاستديو الخاصّ به، وقال إنّه لم يكن يتخيّل موافقتي على طلبه بهذه السرعة، وإنّ هذا الأمر قد أبهجه جداً. وقال إنّني بهذا أسدي له معروفاً كبيراً.

لقد اتّسمت شخصيّة شارلي شابلن بالخجل والرومانسيّة وخِفّة الظلّ، وكان يتصرّف مع الآخرين بودّ واضح وتلقائيّة من دون أيّ تصنّع، وقد جعلني ألمس شاربه وحذاءه وملابسه، كما جلس إلى جواري وسألني مرّات عدّة إن كنت حقاً قد أعجبت بفيلمه السينمائيّ (قصّة حياة كلب)، وكذلك سألني عن رأيي في فيلمه الآخر (أسلحة الكتف)، وإن كنت حقاً قد أحببته وأعجبت بشخصيّته على أرض الواقع أم لا؟

لقد أحببت شخصيّة شارلي شابلن أيضاً، إذ إنّه كان شخصاً طبيعياً جداً، وكنت قد عرفته منذ عشر سنوات، وحينها عرفت مدى براعته، ومدى عبقريّته في مجال

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صناعة السينما. لقد كان حقاً شخصاً صادقاً مُحِباً لفنه، وكان يعرف كيف يُتقِن إدارة تلك الصناعة، وكذلك كان متأثراً بعالم الشِّعر والأدب، وكان تأثير كلّ ذلك يبدو جلياً في أفلامه المعروضة على الشاشة. كذلك شعرت منذ اللحظة الأولى بمدى حساسيته المُفرطة، ومدى شاعريَّته، وأحببت حقاً ما يقدّمه من أعمال فنيَّة، فأظهرت له كامل تقديري لجهده الفني المبذول.

في أثناء تصويرنا ذلك الفيلم السينمائي، كانت هناك إشكاليَّة أصليَّة كانت تتمثّل في شيء رئيس، وهي أنَّ حياتي العاطفيَّة كانت فارغة، فلم يكن ثمَّة حبيب أو عاشِق، وقد عبَّر مُخرج ذلك العمل عن غضبه ذات يوم من ذلك الأمر، وصرخ قائلاً:

«أعتقد أنَّ هذا الفيلم سوف يفشل فشلاً ذريعاً، فحياة هيلين كيلر العاطفيَّة فارغة تماماً، فليس لها حبيب أو عاشق!! ما معنى هذا؟! ستبدو القصَّة على هذا النحو في غاية المَلل! مَن يمكنه أن يشاهد عملاً كهذا في هذه الحالة إذاً؟ مَن يمكنه تقبُّل ذلك الوضع؟ هل من الممكن أن تتخيَّل لنا الآنسة هيلين كيلر حبيباً مثلاً أو عاشقاً حتّى يمكننا إضافة ذلك الجزء إلى الفيلم السينمائيّ؟»

لقد حاولوا حقاً التفكير في أيّ شيء خياليّ لإضافته إلى ذلك العمل الفني حتّى لا يجلب المَلل والسأم للمشاهدين.

لاحقاً، طلب إلينا المخرج أن نُسافر جميعنا إلى ولاية أخرى حتّى يمكننا تصوير مشهد آخر من مشاهد ذلك العمل الفني، وحينها واجهت خطورة السفر بالطائرة للمرَّة الأولى في حياتي! لقد خشيت تلك التجربة جداً، وارتعبت حقاً، وارتجف جسدي عندما ارتقت الطائرة إلى أعالي السماء، وبدأت في الارتفاع. لقد صدمني ما شعرت به، إلّا أنَّ الآنسة آن سوليفان وأمّي والسيّدة بولي سامبثون، وكذلك أخي الذي سافر برفقتنا في تلك الرحلة الجويَّة، قد حرصوا جميعهم على تهدئتي بكلّ الطرائق المُمكنة حتّى تمكّنت شيئاً فشيئاً من التماسك، وهدأت من روعي، وحاولت أن أستوعب تلك التجربة.

Telegram:@mbooks90

لقد أسكرتني تلك الذكريات الخاصّة بهوليوود، وجعلتني حقاً قادرة على التحليق والارتقاء في سموات العالم المفتوح، وعلى الرّغم من كلّ تلك الأجواء المُبهجة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الحماسيّة إلّا أنّه يتعيّن عليّ أن أعترف أنّ هذا الفيلم السينمائي لم يُحقّق أيّ نجاح من الناحية الماديّة! في الواقع، لقد فشل الفيلم فشلاً ذريعاً من تلك الناحية كلّياً، وربّما يعود ذلك إلى أنّ قصّة حياتي تخلو من الإثارة التي تعهدها الأفلام الفنيّة، فقد خلت تماماً من تلك الإثارة الخاصّة بالحياة العاطفيّة، في سبيل المثال، وكذلك أيضاً خلت من الإثارة الخاصّة بإيقاع الحياة الشخصيّة نفسه، فقد شهدت حياتي الطبيعيّة إيقاعاً بطيئاً، ولم تسر الأحداث فيها بسرعة، لكن أخذ كلّ حدث من تلك الأحداث وقته كاملاً، فلم ألتقِ ذلك النوع من المفاجآت الخياليّة، لكنّ حياتي تطوّرت واختلفت بناءً على ذلك التعليم والتدريب الذي تلقّيته، فمثلاً أنا لست تلك المرأة التي قد تتغيّر حياتها كلّياً لأنّها التقت ذلك الأمير الثريّ وفتى الأحلام الذي جعلها هي الأخرى تتحوّل من فتاة فقيرة إلى أميرة يعمل الجميع على خدمتها، فأنا لست تلك الفتاة التي حوّلت إحدى المعجزات حياتها، لكنّني بالأحرى مَن حقّقت بنفسي تلك المعجزة! وهذا في حدّ ذاته مُخالف لطبيعة ونوعيّة الأفلام التي تُعرَض على الشاشة، والتي إمّا أنّها تنجح لأنّها قائمة على قوّة الحياة العاطفيّة وإثارتها، وإمّا أنّها تنجح لوجود عنصر الخيال فيها وتشابكه مع الأحداث. لقد افتقر ذلك الفيلم إلى كلّ تلك العناصر المُثيرة التي من شأنها العمل على إنجاح أيّ فيلم أو عمل فنيّ. ولقد صارحني المخرج والمُنتج الفنيّ بذلك الأمر، إذ قالوا لي فعلاً إنّ قصّة حياتي، على الرّغم من أهميتها ومدى قوة تأثيرها على الصعيد الإنساني، إلّا أنّها تفتقر إلى تلك العوامل التي يمكن أن تعمل على إنجاحها، فأنا لست تلك الفتاة التي لديها حبيب أو عشيق، ومن ثَمّ يمكن استغلال تلك النقطة! فأنا مجرّد فتاة عمياء صمّاء استطاعت أن تتحدّى إعاقتها السمعيّة والبصريّة عن طريق قراءاتها المختلفة، وكذلك عن طريق التدرّب على التواصل مع مَن حولها، لكنّي لا أملك تلك المواصفات المُحدّدة المطلوبة لبطلة شخصيّة ما. لم تكن تلك الخسارة الماليّة لهذا العمل الفنيّ صادمة لأنّها كانت مُتوقّعة منذ البداية، فتلك الآراء، في مجملها، التي تمّ طرحها واستعراضها بخصوص ذلك الفيلم كانت مُحبِطة حقاً، ومن ثَمّ فقد تنبّأت حينها بمستقبل ذلك الفيلم السينمائي من صُنّاعه أنفسهم.

لقد واجهنا أزمات ماليّة عدّة في وقتٍ لاحق، وفي الواقع حاول أصدقائي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وزملائي وأساتذتي دعمي فيما يخصّ ذلك الأمر، وقد نجحوا في توفير مصدر دعم مالي، لكنّ إشكاليّة ذلك الدعم الماديّ المُقدّم لنا تكمن في أنّه يتوقّف تلقائياً بموتي، وهذا يعني أنّه إذا رحلت عن هذا العالم قبل أن ترحل عنه معلّمتي آن سوليفان، فلن تحصل سوليفان على ذلك الدعم، وسيتوقّف إلى الأبد. وثمّة إشكاليّة أخرى، وهي أنّني إذا ما فكّرت في محاولة ادّخار مبلغ ما في غضون تلك الفترة من أجل معلّمتي، إذا رحلت عن هذا العالم في المستقبل، فإنّني لن أتمكّن من فعل ذلك الأمر أيضاً لأنّ المال المُخصّص لدعمنا في هذا الوقت لا يكفي حتّى لتدبّر العيش عيشاً كريماً وكافياً.

لقد دُعينا لاحقاً من أجل خوض تجربة جديدة، وكانت تجربة مختلفة كلّياً عن تجربة إلقاء المحاضرات في غرف الندوات وقاعات المؤتمرات أو داخل أروقة الجامعة، لكنّ ذلك النشاط الذي اقترحه أحد المُنظّمين بإمكان فعله على نحو حصريّ ومُتجدّد، كان أمراً آخر، وقد تمثّل في ذهابنا إلى المسرح ومشاركتنا في الحديث هناك عبر تجربة مسرحيّة تتألف من مجموعة من الممثلين، وكان لي أنا ومعلّمتي آن سوليفان الأدوار الرئيسة المؤثّرة. وعلى الرّغم من أنّ الآنسة آن سوليفان لم تكن سعيدة جداً بذلك النشاط المسرحيّ الذي قمنا به حينها بسبب تلك الحالة من الصخب والضوضاء، التي لم تكن حقاً مُحبّبة لها، ومُعتادة إيّاها، إذ إنّها كانت تفضّل الهدوء والسكينة والتأمّل، ولم تكن تُفضّل ذلك الصخب، الذي هو أمر لا مفرّ منه، وجزء لا يتجزّأ من العمل المسرحيّ. لكنّي شخصياً أحببت العمل المسرحيّ، ووجدت فيه دهشة وإبداعاً لا يتحقّقان فعلاً إلّا من خلال تلك التجربة الفريدة الفنيّة، وقد تمكّنا من المشاركة في نشاطات مسرحيّة عدّة، وأخذنا ننتقل من بلدة إلى بلدة أخرى، لنذهب إلى مسارحها، ونُقيم عروضنا، ونُذيع نصوصنا الأدبيّة والثقافيّة على أسماع الجماهير الغفيرة.

في أثناء قيامنا بالعرض المسرحيّ الخاصّ بولاية لوس أنجلوس، تلقّيت نبأً صادماً وهو وفاة أمّي!

في تلك الأثناء وقفت جامدةً في مكاني، فأنا لم أكن أتخيّل حياتي من دون أمّي،

فلقد عشت برفقتها مدى تلك السنوات الطوال، وظلّت في أثنائها إلى جواري على الدوام، ولم تتركني يوماً، ولقد دعمتني وشجّعتني وحدّثتني بلُطف، ولطالما كانت رفيقتي وصديقتي الحميمة، لطالما أحبّتني وآمنت كلّياً أنّ في مقدوري تجاوز حدود إعاقتي، وبإمكاني حقاً تحقيق كلّ أمنياتي. لقد عرفت أمّي العزيزة أنّني أطمح إلى خدمة المجتمع الإنساني ككلّ، وأصحاب الإعاقات المختلفة على نحوٍ خاص. لقد فهمت غايتي في الحياة، وساعدتني في اكتشاف غرضي منها، ودعمتني حتّى أتوصّل إلى فلسفة حياتي الخاصّة ووجهة نظري في معرفة الأمور المختلفة وإدراكها.

لقد أدّت أمّي دوراً عظيماً في حياتي، وأخذت بيدي للمُضيّ قدماً حتّى أصبح في تلك الصورة التي أنا عليها الآن. وعلى الرّغم من أنّي خسرت والدي في سِنّ صغيرة، عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، إلّا أنّ ذلك الحدث بالنسبة إليّ لم يبدُ لي صادماً جداً كحدث وفاة أمّي لأنّ الأخير بدا لي غير حقيقيّ. كنت صغيرة السنّ، وغير واعية لكلّ شيء حولي إلى تلك الدرجة التي أصبحت عليها لاحقاً.

كانت أمّي تشكّل كلّ شيء لديّ، وكان أمر فراقها أشبه بالكابوس. لم تكن لديّ القدرة على المُضيّ قدماً في الحياة بعد رحيلها، فهي تلك المرأة التي صادقتها خلال رحلتي في الظلام، وساعدتني بكلّ الطرائق المُمكنة في تلمُّس طريقي، وكانت أحد الأسباب المُباشرة التي ساعدت في تسلُّل ذلك النور إلى روحي المُعذّبة.

في الواقع، لم أكن أتذكّر إلّا بعض الذكريات المحدودة لي مع والدي بسبب موته عندما كنت صغيرة السِنّ، لكنّ ذكرياتي مع أمّي الراحلة قد ملأت روحي وقلبي، وجعلتني أفكّر فيها على الدوام، إذ إنّني كنت أجد عزائي في استرجاع تلك الذكريات التي جمعتنا معاً، حيث إنّنا سافرنا معاً وكانت تلك الرحلات هي أوّل ما فعلته أمّي إلى خارج حدود الوطن، وحينها عبّرت عن سعادتها الكبيرة ووافر امتنانها لأنّها تمكّنت حقاً من السفر إلى خارج البلاد والانتقال من ولاية إلى أخرى برفقتي. كذلك شعرت أمّي بالسعادة لأنّها شهدت ذلك النجاح المُحقّق الملموس، وشاهدت كلّ ذلك المديح والإشادات الخاصّة بكتاباتي في الحقول الأدبيّة والثقافيّة،

وكذلك شهدت كلّ تلك الحفاوة التي قدّمتها الجماهير على مستوى العالم فيما يتعلّق بتلك النشاطات الاجتماعيّة والخدمات الإنسانيّة التي حرصت على تقديمها والدعوة إلى إقامتها على نحو فاعل من شأنه خدمة المجتمعات وأفرادها.

لقد عكفت أمّي على احتضاني بكلتا ذراعيها، واستطعت خلالها أن أرى أنوار ذلك العالم، التي حُرِمت منها. كنت أشعر بيدها تُلاطف وجنتي، وكذلك كنت أشعر بها تمسح دمعاتي برِقّة.

لطالما أخبرتني أمّي كم كانت سعيدة عندما وُلِدت، ولقد سردت لي تلك القصص والحكايات التي تخصّ مغامراتي خلال مرحلة الطفولة وقبل أن أفقد سمعي وبصري. كانت تحكي لي أنّي كنت طفلة مُغامِرَة جداً، وأنّي كنت أهرع هنا وهناك وأحرص دائماً على مُلاحقة الحشرات والفراشات، كما أنّي كنت أحاول إمساكها بكلّ شجاعة وجرأة.

قالت لي أمّي أيضاً إنّنا عشنا معاً حياةً سعيدة مُبهِجة في تلك الأشهر الأولى من طفولتي، وإنّه سرعان ما تَبدّل كلُّ ذلك عندما مرضت بالحمّى القرمزيّة، التي نشأت عنها إصابتي بالعمى والصمم! وقد كانت أمّي، في ذلك الحين، في الثالثة والعشرين من عمرها، وأكّدت لي أنّها منذ تلك اللحظة لم تعد كما كانت من قبل، وأنّ تلك الصدمة قد تركت تأثيراً سلبياً عليها.

لقد عانت أمّي الأمرّين. إنّني أعلم ذلك الأمر جيداً، وإن كانت لم تُعلنه صراحةً، لكنّي أعرف أنّ أمّي حقاً عانت بشدّة خلال تربيتي ونشأتي تحديداً بسبب طبيعة إعاقتي تلك، فأنا لم أكن طفلتها الوحيدة بل كنت طفلة ضمن مجموعة أطفال آخرين، وكان يتعيّن على أمّي حينها الاهتمام بنا جميعاً. أضِف إلى ذلك أنّ الله قد رزقها بطفلة عمياء صمّاء، فهذا أمر حقاً لا تُحسَد عليه.

يمكنني القول إنّ أمّي لم تكن سعيدة قطّ إبّان تلك الفترة الزمنيّة، إذ لطالما شعرت بمدى بؤسها وحُزنها، كذلك كانت تميل بقوّة إلى الوحدة، فلم تكن لديها أيّ فرصة للاستمتاع بحياتها بأيّ شكلٍ من الأشكال. اعتادت أمّي، على الدوام، ألّا تتحدّث عن نفسها، ولم تكن تتحدّث أيضاً عن معاناتها أمام أحد من أطفالها على الإطلاق. لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدّت أمّي حقاً دوراً عظيماً في حياتنا على الرّغم من الصعوبات والتحديات التي واجهتها، والتي كان على رأسها – مثلاً - عدم استطاعتها الكتابة بطريقة «برايل» أو طريقة الأحرف البارزة، ولقد كانت أيضاً تكره أن يقرأ لي الآخرون رسائلها، ويُترجمون لي ما تقوله.

حينما تزوّج أشقّائي، عاشت معي أمّي طيلة تلك الفترة حتّى كبرت وحقّقت تلك الآمال الكبيرة التي كنت أنشدها، ثمّ رحلت عن هذا العالم بعد أن أصبحت «هيلين كيلر» تلك الشخصيّة الثقافيّة والأدبيّة والناشطة الاجتماعيّة التي يعرفها الكثيرون حول العالم. لقد استطاعت أمّي حقاً أن تجعلني في تلك الصورة التي أنا عليها الآن.

في الواقع، لم تكن أمّي أيضاً ربّة منزل فقط، لكنّها كانت تُدير قطعة أرض كان يملكها آباؤها في الماضي، وقد حاولت تدبُّر أمورها في وقتٍ لاحق. فكانت تقوم بأعمال المنزل وتربية ورعاية الأطفال، وكذلك كانت تشرف على تلك الأراضي، وتوجّه العُمّال الصغار والمُزارعين. وكانت أمّي أيضاً ترعى الحدائق، وتهتمّ بالنباتات. كانت أمّي أيضاً شديدة الودّ مع جيرانها، وتحرص كلّ الحرص على مُساندتهم ومُساعدتهم في أزماتهم المختلفة، سواء أكانت تلك الأزمات ماديّة أم إنسانيّة.

كانت أمّي مُولَعة أيضاً بزراعة النباتات وتربية الطيور بأنواعها المختلفة، وتحرص على قضاء ساعات طوال في الغابات، تتمكّن في أثنائها من التأمُّل ومشاهدة الأعشاش، ورؤية تلك الطيور الصغيرة الرضيعة التي كانت أمّي تُحاول أن تُعلّمها الطيران.

كانت أمّي قارئة شغوفاً، تحبّ حقاً أن تطّلع على مختلف الكتب، في كلّ المجالات والميادين المختلفة، إذ إنّها كانت تقرأ في مجال الفلسفة والأدب والسياسة، ودائماً ما تحرص على إعطائي رؤية حول ما يدور حولي من موضوعات وقضايا سياسيّة، فقد كانت أمّي تحرص على عرض المشهد السياسي أمامي بكلّ حياديّة، وكانت تقوم بعرض وجهات نظرها المختلفة بشأن كلّ قضيّة من تلك القضايا المتعدّدة. كانت أمّي تبذل جهداً مُضنياً صادقاً في إطلاعي على كلّ شيء يحدث في البلاد، وفي العالم أجمع. كانت دائمة البحث عن معاني تلك الكلمات والمفاهيم المُحدّدة المُتخصّصة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتشرح لي مدى عمق المشهد السياسي وتلك الآراء والأفكار المطروحة، ولتترك لي الخيار في نهاية المطاف حتى أتمكّن من صياغة وجهة النظر الخاصّة بي إزاء تلك القضايا والأحداث السياسيّة المختلفة.

على الرّغم من هذا الدور الكبير المؤثّر الذي لعبته أمّي في حياتي، إضافةً أيضاً إلى ذلك الدور الآخر الذي لعبته معلّمتي الآنسة آن سوليفان، ومُساعدتها لي في كلّ شيء، ما مكّنني في نهاية المطاف من تجاوز حدود إعاقتي الماديّة تلك، إلّا أنّ كلّ ذلك لا يجعلني أتجاهل ذلك القدر الكبير المُوحِش من الألم، والمُعاناة التي شهدتها في بداية حياتي كفتاة عمياء صمّاء تمكّنت من هزيمة إعاقتها، ومحاولة الولوج في عالم آخر أكثر ثراءً، الذي تمثّل في الأدب والكتابة والثقافة، وكذلك أيضاً الخدمة الإنسانيّة والنشاطات الاجتماعيّة. ويمكنني أن أقول، ببساطة، شيئاً ربّما لم أتحدّث عنه من قبل، وهو ما يتعلّق بطبيعة ذلك الاستقبال الذي كنت أتعرّض له عندما كنت أذهب إلى مكانٍ ما كي يتعرّف إليّ مَن يقومون بتنظيم فعالية ثقافيّة معيّنة، أو أحد أفراد مؤسّسة ما، أو تلك الجماهير الأخرى، فلقد كان الأمر أشبه باستقبال أولئك الأفراد لأحد القردة القادمة من حديقة الحيوان. كنت أفكّر مراراً وتكراراً، وأتساءل في فضول: يا تُرى، لماذا يتعامل معي الناس بتلك الطريقة العجيبة وكأنّي أحد الحيوانات العجيبة؟ لماذا تجدهم يُحدّقون إليّ بعجبٍ واضح؟ ولماذا لا يكفّون عن تأمّلي في ريبٍ ودهشة؟

في الواقع، يمكنني القول إنّني لم أُعامَل في بادئ رحلتي معاملةً عادلة ومُنصِفة كفتاة عاديّة استطاعت أن تقهر الإعاقة بقوة إرادتها وبتعليمها، لكن تلك الصورة التي تمّ تصديرها كانت تركّز فقط على إعاقتي السمعيّة والبصريّة، وكأنّي كائن عجيب قادم من أحد الكواكب الغريبة المُجاورة، فلم يتعامل معي أحدهم حينها، في تلك الأثناء، بصفتي امرأة عاقلة قادرة على التفكير العلمي وإبداء وجهة نظرها على نحو سليم، بل عانيت مراراً وتكراراً من طرائق الآخرين في التفاعل مع وضعي، وتعبيرهم عن ذلك بدهشتهم التي لا ترحم.

ما أسوأ أن يتعامل معك الآخرون على أنّك شخص مُثير للشّفقة! ما أسوأ أن

ينظروا إليك كحالة فقيرة مسكينة ميئوس منها!

لقد أزعجتني تلك الطريقة حقاً، وحاولت تجاهل ردود الفعل تلك، وحاولت بكلّ السّبل أن أتجاوز تلك المسائل على الصعيد المعنويّ في بداية الرحلة، لأنّني إذا لم أتمكّن من ذلك، فما كان في مقدوري لاحقاً الوصول إلى تلك المنطقة التي أصبحت فيها الآن، فالجانب المعنويّ هو ذلك الجانب شديد الحساسية الذي يمكن ببساطة أن يتلقّى خلاله المرء ضربات قاسية مُبرحة، فإذا لم يُهزم المرء معنوياً فهو لم يُهزم بعدُ، فأصعب الأمور هو أن يجري اغتيال أحدنا معنوياً، ففي تلك الحالة على وجه التحديد، لا يجد الواحد منّا أيّ سبيل أمامه للنجاة، لكنّه يجد نفسه يستسلم كلّياً ولا يبحث عن أيّ وسيلة فعليّة ناجزة حتّى يُنقذ نفسه ويُنقذ من حوله، فإذا وضعت كلّ تلك الأفكار السلبيّة التي تودّ حقاً النيل منك جانباً، فإنّك حينها على الفور تكون أشبه بمَن يُقدّم روحه على طبقٍ من ذهب لأعدائه، وتالياً، فأنت الآن عارٍ لا تملك أيّ وسيلة دفاعيّة تُمكّنك من تحقيق أيّ انتصار على المدى البعيد، فليس هناك ما هو أسوأ من إنسان ذي معنويات ضعيفة.

لقد تعدّدت تلك الطرائق التي كنت أعتمد عليها في التحصيل والمعرفة، وكانت إحدى تلك الطرائق السائدة أن أقرأ بطريقة «برايل» المُخصّصة للمكفوفين، وكانت هناك طريقة أخرى، هي أن يقرأ لي الآخرون، وأن أتحسّس شفاههم بيدي. كانت هناك طريقة إضافيّة، وهي أن أقرأ عبر الأحرف البارزة التي أتلمّسها بأصابعي، ولقد نجحت بالفعل في تكوين معارفي ومعلوماتي بناءً على تلك الطرائق سالفة الذكر. ولا أخفيكم سِرّاً، فعلى الرّغم من أنّي بالتأكيد كنت أتوق إلى أن أرى تلك المشاهد من حولي بنفسي، وأنّي كنت أتمنّى أن أتأمّل تلك الجموع من حولي بعينيّ، لكنّي بعد كثير من الثورة والتمرّد على إعاقتي تلك، في نهاية المطاف، قبلت بها، وقرّرت أن أبدأ في وضع حلول لها حتّى أتمكّن من تجاوز تلك الأزمة بطرائق مدروسة وملموسة، فأنا لم أكن أحد هؤلاء البشر الذين لا يبذلون جهداً من أجل تحسين أوضاعهم، بل على النقيض تماماً، فلقد حاولت بكلّ الوسائل تحسين وضعي والانتقال إلى وضع أفضل. لقد حرصت حقاً على ألّا أمثّل عبئاً ثقيلاً على أحد، سواء من أسرتي أم من أصدقائي، فعلى الرّغم من أنّ أولئك المرافقين الذين كانوا معي طوال رحلتي هم مَن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُخبرونني على الدوام بما يحدث من حولي، وعلى الرّغم من أنّهم كانوا يقولون لي على نحو مُستمرّ ما يُقال عنّي إلّا أنّني كنت أتمنّى لو أنّني تمكّنت فعلاً من رؤية كلّ شيء بنفسي من دون وسيط، ومن دون أن أطلب أمراً كهذا من أحد، فقد كانت تلك المسألة تُشعرني بالحرج والارتباك، وكانت تُثقِل كاهلي.

كنت أتسلّى بقراءة تلك المقالات العديدة المتنوّعة الموجودة على صفحات تلك المجلّات المكتوبة بطريقة «برايل»، أو الأحرف البارزة، وكنت أشعر بالامتنان الشديد لتوافر تلك المجلّات بتلك الطريقة، على الرّغم من قلّة عددها، وعلى الرّغم من أنّه كان هناك المزيد من الكتب المهمّة التي كنت أتوق حقاً إلى أن تتمّ كتابتها بطريقة الأحرف البارزة تلك، إلّا أنّ تلك القضيّة المهمّة بالنسبة إلى المكفوفين كانت مُهمَلة بعض الشيء من جانب أولئك المسؤولين عن المؤسّسات والهيئات الثقافيّة الكبرى، وتالياً، فقد كنّا نعاني - نحن المكفوفين - في صمت، وذلك في حدّ ذاته يجعلنا نتساءل في إلحاح وعجب: ألا نستحقُّ أن يلتفت القائمون على الشأن الثقافيّ إلى تحقيق تلك الخدمة لأجلنا؟ أليست الثقافة والمعرفة حقوقاً أصيلة للجميع؟ ألا يُفترض أن يتمّ تطوير تلك العمليّات الخاصّة بالطباعة من أجل حلّ تلك المعضلة الرئيسة؟ لقد احتلّت تلك القضايا تفكيري بشدّة، وحينها بدأت أقرأ قراءات مُتخصّصة في هذا الشأن، وبدأت أطّلع على تلك الأبحاث الاستقصائيّة التي تخصّ القُرّاء المكفوفين، وصرت أتعرّف المزيد والمزيد من مشكلاتهم، فتلك المسائل مثلاً، التي تمكّنت أنا، بحسباني هيلين كيلر، من تحقيقها بسبب مساعدة معلّمتي الآنسة آن سوليفان وإخلاصها وتفانيها في العمل، قد لا يتمكّن غيري من القيام بها بأيّ طريقة من الطرائق، وذلك لعدم وجود تلك المُساعدات والعوامل الداعمة التي قد تُعينه لأجل فعل ذلك. لقد بدأت أتفرّغ كلّياً للقراءة بخصوص ذلك الشأن، ورحت أتحرّك على صعيد عملي فيما بعد من أجل مساعدة أولئك المكفوفين. لقد شعرت في أعماق نفسي بأنّ قضيّة هؤلاء هي قضيّتي في الأساس، ولقد شعرت يقيناً أنّه ربّما ساعدني الله في ذلك الأمر حتّى أتمكّن من مُساعدة غيري، فهناك مَن يواجهون صعوبة في القراءة بطريقة «برايل»، وهم في حاجة ماسّة إلى حلول، وهناك مَن لا يستطيعون الكتابة بتلك الطريقة أيضاً، وهم كذلك في حاجة إلى حلول، ولقد أدركت لاحقاً

أن لا أحد في مجتمعي يتحدّث نيابةً عن المكفوفين، وذلك انطلاقاً من حسبانهم أقليّة. لقد رأيت بنفسي حقيقة ذلك الأمر، وعلمت أنّ المسألة كلّها تتمثّل في إبداء التعاطف والشفقة تجاههم فقط، لكن لا يوجد تصرّف حقيقي على أرض الواقع لمساعدة تلك الأقليّات، والأمر ليس مقتصراً على المكفوفين فحسب، بل يمتدّ إلى الصّمّ وكلّ أصحاب الإعاقات الجسديّة الأخرى. نحن في حاجة إلى إثبات حقوقهم، وإلى مساندتهم ومساعدتهم في كيفيّة تخطّي إعاقاتهم، ولقد أجريت دراسة حول العمل الاجتماعيّ لاحقاً، وكنت أوّل امرأة عمياء صمّاء تعمل كناشطة اجتماعيّة، وعلى الرّغم من ذينك الهجوم والانتقاد، اللذين عانيت من ويلاتهما، إلّا أنّني قد تجاهلت كلّ شيء، وتفرّغت تماماً لتلك القضيّة، وحاولت بحث الطرائق والآليّات التي يمكنني عن طريقها تقديم الدعم والمساعدة الملموسة إلى أولئك الأفراد، وبدأت في طرح مجموعة من الأسئلة أولاً، ثمّ البحث عن إجابات عنها، وجاء على رأس تلك الأسئلة: كيف يمكنني أن أمدّ يد العون إلى أصحاب الإعاقة في مجتمعي أوّلاً، وفي العالم ثانياً؟ وهل تلك الأحلام التي أؤمن بها خياليّة أو أنّها قابلة للتنفيذ؟ حسناً، ما هي آليّات واستراتيجيّات ذلك التنفيذ؟ وكم هي المدّة الزمنيّة اللازمة لإتمام ذلك المشروع الإنسانيّ؟ ما هي احتياجات الشخص المُعاق الأساسيّة؟ وهل أنا على دراية تامّة بكلّ إشكاليّات الإعاقة وحالاتها؟ ما هو الدور الواجب على المؤسّسات الحكوميّة بذله في ذلك الصدد؟ هل هناك دور يمكن للمؤسّسات الاجتماعيّة الخاصّة تقديمه؟ وكيف يمكننا بناء ثقة الإنسان المُعاق في ذاته؟ كيف يمكننا نقل التجربة البشريّة الواقعيّة كما هي لشخص لم يرَها من قبل؟ وبالطبع لقد فكّرت في تجربتي الخاصّة، لكنّني أدركت أيضاً، بعد فترة طويلة من التفكير، في أنّه ربّما تنجح تلك التجربة عند تطبيقها على بعض هؤلاء الأشخاص المُعاقين، لكن ربّما تفشل مع آخرين؟ وسألت نفسي أيضاً عن تلك الأبحاث والدراسات التي تخصّصت في التعامل مع تلك الحالات وكتابة تفاصيل دقيقة تتعلّق بها؟

لقد عكفت على مُتابعة حالات أولئك الأشخاص من ذوي الإعاقة، وحاولت تسخير وقتي وجهدي من أجل خدمتهم، ولقد بدأت في وضع اقتراحات من أجلهم، وعملت على تطوير مشروعي البحثيّ الخاصّ في ذلك الصدد.

إنّني لشديدة الإيمان حقاً بأنّه إذا لم تكن للإنسان رسالة أو هدف سامٍ يودُّ حقاً أن يسعى إلى تحقيقه إبّان حياته، فإنّه يُنفِق حياته هباءً! إنّ ذلك الهدف أو تلك الرسالة هي التي من شأنها، صِدقاً، أن تُنير دربنا، فمن دون تلك الرسالة من الصعب أن يجد الإنسان طريقه، وسيظلُّ مُشَتّتاً إلى أبدِ الدهر.

إنّني أؤمن بخلود الروح، فأنا حقاً أعتقد صِدقاً أنّ تلك المرحلة التي ينتقل إليها الإنسان بعد الموت، هي وَليدة أفكاره ومعتقداته الخاصّة وأعماله في الحياةِ الأولى. إنّني أؤمن أيضاً أنّنا جميعاً مجرّد زائرين مؤقتين في هذا العالم، لكنّنا سنعود مرّة أخرى إلى ذلك الوطن الدائم، وهناك في ذلك العالم أؤمن أنّني سأمتلك تلك الحواس التي قد حُرِمت منها في هذا العالم، وسأتمكّن حينها من رؤية تلك الألوان الجميلة والمشاهد الطبيعيّة البديعة، وتلك الزهور والسماوات والأرض، وتلك الوجوه التي أحبّها حقاً.

من دون الإيمان يفقد الإنسان قدرته على الرؤية في حياته الأولى، وكذلك أيضاً لا يجد أيّ معنى لهذه الحياة. ومن دون تلك الحياة الروحيّة الغنيّة كيف يمكن لأحدهم أن يضع تصوّراً للغد؟ وكيف يمكن لمَن فقد بصره أن يستحمّ في ضوء أنوار البصيرة؟

إنّني أؤمن حقاً أنّ على الإنسان الفطن، صاحب الروح الشفّافة، أن ينتبه كلّياً إلى تلك الإشارات من حوله، وأن يتعلّم كيف يُنصِت إلى صوته الدّاخلي.

Telegram:@mbooks90